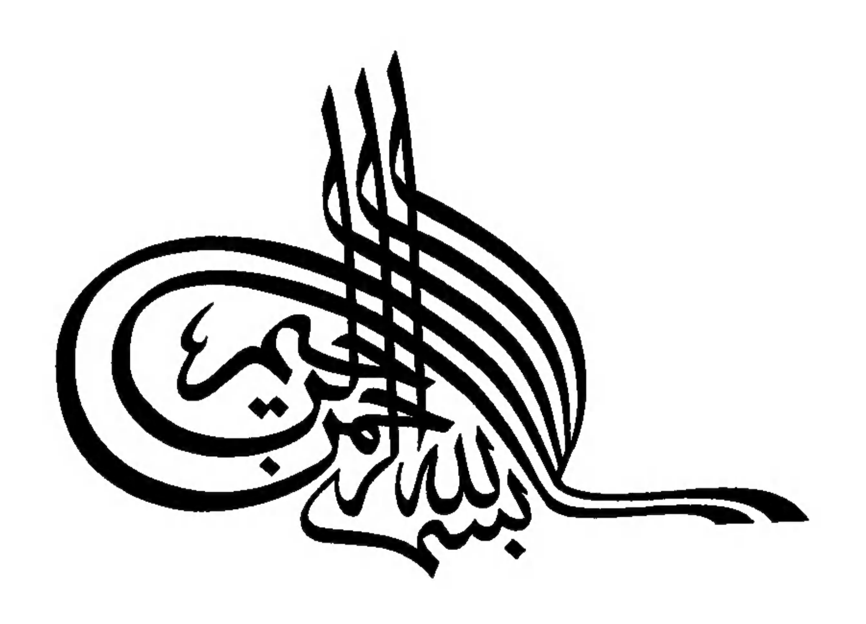
واحة الإيمان عند ابن القيم (٢)

الإيمان بالملائكة الأطهار

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان الأشقر



دار النفائس
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

واحة الإيمان عند ابن القيم (٢)

الإيمان بالملائكة الأطهار

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م

الطبعة الأولى



دار النفائس للنشر والتوزيع

العبدلي - مقابل عمارة جـوهرة القــدس
ص.ب : 927511 عـمّــان 11190 الأردن
هاتف : 5693940 - فاكس : 5693941

e-mail : alnafaes@hotmail.com
web : www.al-nafaes.com

فاتحة الكتاب

الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام، وهدانا إلى الإيمان، والصلاة والسلام على من بعثه الله إلى عباده هادياً وبشيراً، ومرشداً عباده إليه بإذنه وسراجاً منيراً، وعلى آله الأطهار، وصحبه الأخيار، وعلى من سلك سبيلهم، واهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعد:

فهذا هو الكتاب الثاني من «واحة الإيمان عند ابن القيم» وقد حوت فصلين الثاني والثالث.

أما **الفصل الثاني** فحديث عن الركن الثاني من أركان الإيمان، وهم الملائكة الأطهار، وقد عقدت لحديث ابن القيم عنهم اثني عشر مبحثاً.

المبحث الأول للتعريف بهم، **والثاني** لبيان صفاتهم التي وصفوا بها، **والثالث** لبيان أن الإيمان بهم أحد أصول الإيمان، وأوردت في **المبحث الرابع** الأدلة الدالة على الملائكة، وفي **المبحث الخامس** حديث عن مساكنهم ومجالسهم.

وفي **المبحث السادس** ذِكْر لأفضل الملائكة ورؤسائهم، **والمبحث السابع** مبحث واسع وطويل للحديث عن الملك الأعظم الأكرم جبريل عليه السلام، بيّنت فيه فضله وصفاته، والحديث عن جماله وبهائه، ورؤية الرسول ﷺ له، وأهمية هذه الرؤية.

وذكرت في **المبحث الثامن** أعمال الملائكة وأصنافهم، فهم المقسمات أمراً، وهم النازعات غرقاً، والسابحات سبحاً، والمدبرات أمراً، والناشرات نشراً، والسابقات سبقاً.

والمبحث التاسع معقود للحديث عن الملائكة وآدم، **والمبحث العاشر** للحديث عن الملائكة وبني آدم، بيّنت فيه أن الملائكة موكلون ببني آدم، ومنهم من يقارنه مدة حياته، وبيّنت أنهم ناصحون لبني آدم، مستغفرون له، يحفون طلبة العلم ويحضرون مجالسهم ويضعون لهم أجنحتهم.

والمبحث الحادي عشر يتحدث فيه ابن القيم عن المفاضلة بين آدم ثم الصالحين من بنيه.

والمبحث الثاني عشر وهو الأخير معقود لبيان ضلال من ضلّ من بني آدم في الملائكة، ومن هؤلاء الفلاسفة الذين كفروا بهم وأنكروهم، والمشركون الذين عبدوهم من دون الله، وجعلوهم بنات الله، ومنهم الذين اتخذوهم هزواً، وآخرهم اليهود الذين والَوْا بعضهم وعادَوْا بعضهم.

وأما **الفصل الثالث** فقد عقدته لما حدَّث به ابن القيم عن الجن والشياطين، وقد جاء الحديث عنهم في أحد عشر مبحثاً.

المبحث الأول في التعريف بالجن، وأنهم كانوا ولا يزالون طرائق قدداً، وبيان لعمل الشيطان وقرآنه وطعامه وشرابه ومجالسه.

والمبحث الثاني أوردت فهي الأدلة الدالة على أنهم مكلفون، **والمبحث الثالث** سقت ما أورد فيه ابن القيم أن رسل الجن هم رسل الإنس، وليس لهم رسل من أنفسهم، وهذا وإن وقع فيه خلاف، فإن الأمة متفقة على أن رسولنا ﷺ مرسل إليهم كما هو مرسل إلى الإنس،

والمبحث الرابع معقود لكون الجن مجزيين محاسبين، كافرهم في النار باتفاق، ومؤمنهم في الجنة على القول الراجح.

وفي **المبحث الخامس** حديث ابن القيم عن السقوط الكبير لإبليس، وهذا السقوط كاد فيه الشيطان نفسه قبل أن يكيد غيره، فاختار الكفر عمداً على علم، وقد ساق ابن القيم فيضاً من الأدلة أبطل بها شبهة إبليس الزاعمة أن النار خير من الطين.

والمبحث السادس يتحدث عن المعركة الأزلية بين إبليس وبين آدم وذريته من بعده، بيّن فيها ابن القيم كيف كاد الشيطان الأبوين، وتحدث عن هجومه على الإنسان من جميع الجهات إلا العليا، وبيان للغاية التي يقصدها الشيطان، وهي الهيمنة على قلب الإنسان، وقد صور ابن القيم بأسلوبه الممتع الأخّاذ كيف يدلُّ الشيطان جنده في إضلالهم الإنسان، وفيه بيان للطرائق التي يسلكها الشيطان لصيده الإنسان، كما ختمت هذا المبحث ببيان ما ذمّ الرحمن من تبع هدى الشيطان من بني آدم.

وعقدت **المبحث السابع** لذكر ما دوّنه ابن القيم في تلاعب الشيطان بالإنسان، فقد جعل الله لكل فرد من بني آدم قريناً من الشياطين يلازمه، وقرر ابن القيم أن الشيطان تلاعب ببني آدم في تعبيدهم للمخلوقات، ودلالة الخلق على الطريق الذي يأسر فيه الشيطان الإنسان، ويتجرأ فيه عليه، وأوردت ما ذكره ابن القيم من ذكره لمبتغى الشيطان من الإنسان، كإشغاله له عن الصلاة، وأمره العباد بتبتيك آذان الأنعام.

وفي **المبحث الثامن** المعنون له بأولياء الشيطان أوردت ما ذكره ابن القيم من ولاية الشيطان للكفرة والمشركين وأهل المعاصي، وبخاصة توليه

لأصحاب الكشوف الشيطانية، وفي هذا المبحث ذكرت تخويف الشيطان المؤمنين أولياءَه، وتزيينه الباطل لهم، وبخاصة تحلية هذا الباطل بالأيمان الكاذبة، بالإضافة إلى تزيينه الكلام الباطل والآراء المتهافتة.

والمبحث التاسع ذكرت ما قرره ابن القيم من إحراز الإنسان نفسه من الشيطان، وفي أول مطالب هذا المبحث ذكرت مدى إعانة الرحمن للإنسان في حربه مع الشيطان، ثم ذكرت كيف يكون الإنسان عمره كله بين الملك والشيطان وبين الهوى والعقل، ومع ذلك كله فلله عباد لا سلطان للشيطان عليهم.

وقد عقدت في **خاتمة** هذا المبحث الطرائق التي يقي فيها الإنسان نفسه من الشيطان، وفي **المبحث العاشر** حديث مطول عن حكمة الباري تبارك وتعالى في خلقه الشيطان.

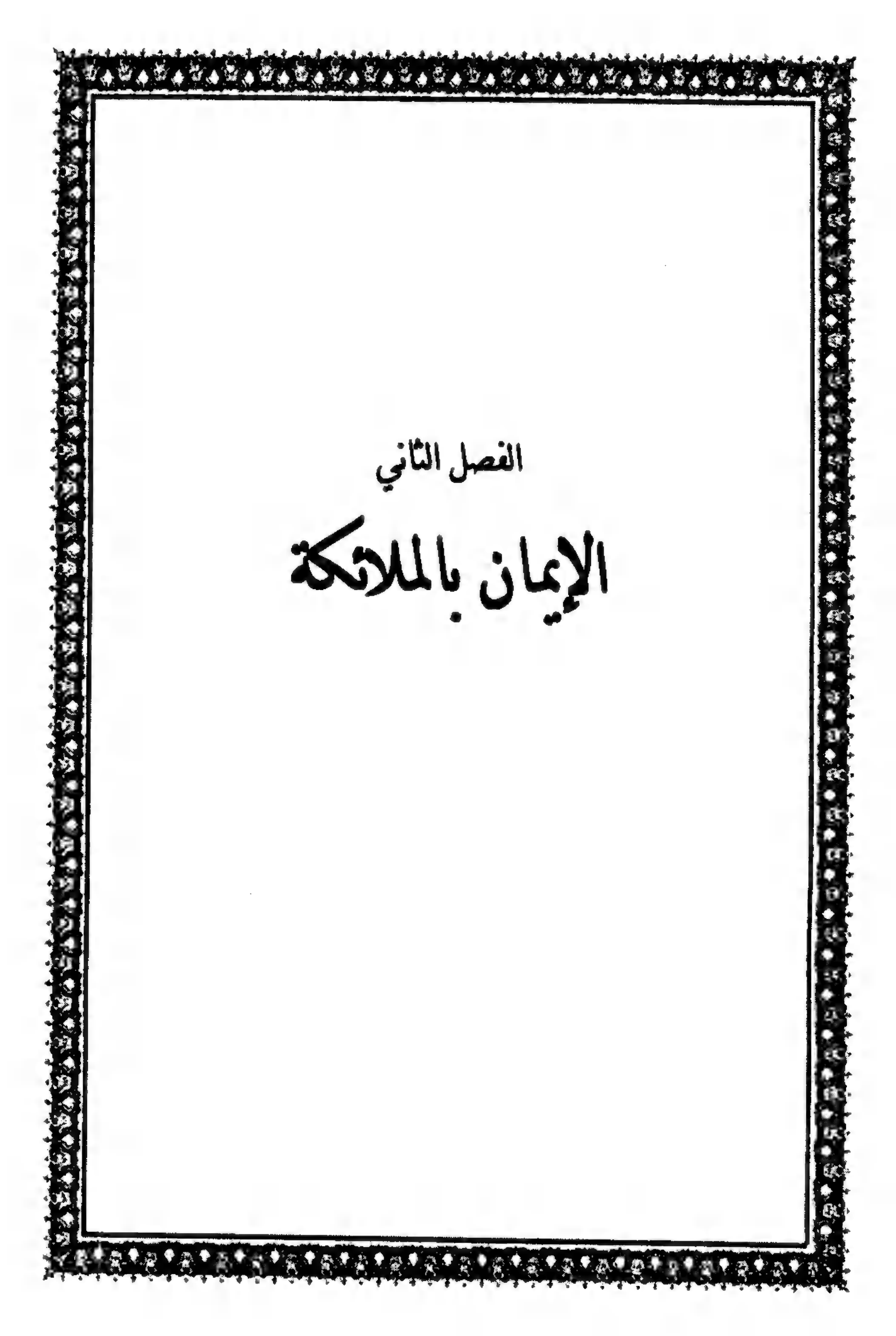
والمبحث الحادي عشر، وهو المبحث الأخير، ذكرت فيه أموراً متفرقة بعنوان: **باب جامع**.

وقد ذكرت فيه خمس مسائل في خمسة مطالب، الأول في حكم التسمي بأسماء الشياطين، وفي الثانية حكم مشاركة الجن الإنسان الصبر. والثالثة السر في تقديم الإنس على الجن في آيات، وتقدم الجن على الإنس في آيات أخرى، والرابعة تضايق الشيطان من عالم أكثر من تضايقه من ألف عابد، فالعلماء يبطلون خطوات الشيطان ويهدمونها، وفي الخامسة والأخيرة بيان لخلع خالد بن الوليد شجرة العزّى، وقتله الشيطانة التي كانت تقارنها، وفتك خالد بسادن تلك الآلهة المزعومة.

أسأل الله أن أكون قد وفقت في إعداد الكتاب على هذا النحو، وأسأله النفع لقارئه، والنفع لكتابته في جنات النعيم يوم الدين، وصلى الله على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

عمر سليمان عبدالله الأشقر
عمان – الأردن

١٧ من ربيع الثاني ١٤٢٧هـ
١٥ من أيار (مايو) ٢٠٠٦م



الفصل الثاني

الإيمان بالملائكة

المبحث الأول

التعريف بالملائكة

المطلب الأول

لفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ للأمر

«لفظ الملك - كما يقول ابن القيم - يُشعرُ بأنه رسول منفذ لأمر غيره، فليس له من الأمر شيء، بل الأمر كله لله الواحد القهار، وهم ينفذون أمره ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٧-٢٨] ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل:٥٠] ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦] ولا تتنزل إلا بأمره، ولا تفعل شيئاً إلا من بعد إذنه. فهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦] منهم الصَّافُّون، ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا من له مقام معلوم، لا يتخطاه، وهو على عمل قد أُمِرَ به لا يُقصِّر عنه، ولا يتعداه، وأعلاهم الذين عنده سبحانه ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠] [إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٧].

المطلب الثاني

المادة التي خُلق الملائكة منها

ذكر ابن القيم أن الملائكة خُلقوا من نور، وفي ذلك يقول: «أصل الملائكة ومادتهم التي خُلقوا منها هي النور، كما ثبت ذلك مرفوعاً عن النبي ﷺ في صحيح مسلم» [بدائع الفوائد: ٢/ ٦٢].

والحديث الذي يشير إليه ابن القيم، هو حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ : «خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم» [مسلم: ٢٩٩٦].

المطلب الثالث

الملائكة خير صافٍ وعقول بلا شهوات

وذكر ابن القيم في تعريفه بالملائكة «أنهم خير محض، والخير كله حصل على أيديهم» [بدائع الفوائد: ٢/ ١٨٤].

كما ذكر أنهم عقول بلا شهوات، وفي ذلك يقول: «خلق الله الملائكة عقولاً بلا شهوات، وخلق الحيوانات ذات شهوات بلا عقول، وخلق الإنسان مركّباً من عقل وشهوة، فمن غلب عقله شهوته كان خيراً من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله كان شراً من الحيوانات» [مفتاح دار السعادة: ١/ ٣٥٢].

وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن الجن يشاركون الإنس في الصبر، ثم تساءل عن حكم مشاركة الملائكة الإنس في الصبر، فقال: «هل تشاركنا الملائكة في شيء من أقسام الصبر؟» وأجاب قائلاً: «قيل: الملائكة لم يبتلوا بهوىً يحارب عقولهم ومعارفهم، بل العبادة والطاعة لهم كالنَّفَس لنا، فلا يُتصور في حقهم الصبر الذي حقيقته ثبات باعث الدين والعقل في مقابلة باعث الشهوة والهوى، وإن كان لهم صبر يليق بهم وهو ثباتهم وإقامتهم على ما خُلقوا له من غير منازعة هوى أو شهوة أو طبع.

فالإنسان منا إذا غلب صبرُه باعثَ الهوى والشهوة التحق بالملائكة، وإن غلب باعثُ الهوى والشهوة صبرَه التحق بالشياطين، وإن غلب باعثُ طبعه من الأكل والشرب والجماع صبرَه التحق بالبهائم» .

قال قتادة: «خلق الله سبحانه الملائكة عقولاً بلا شهوات، وخلق البهائم شهوات بلا عقول، وخلق الإنسان وجعل له عقلاً وشهوةً، فمن غلب عقله شهوته فهو مع الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو كالبهائم» [عدة الصابرين: ٣١].

المبحث الثاني
صفات الملائكة

المطلب الأول
قدرتهم على اختراق الحواجز والحجب

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى مبيناً قدرة الملائكة على ما لا يقدر البشر عليه: «فإذا وُضِع الميت في لحده، وسوِّي عليه التراب، لم يحجب الترابُ الملائكةَ عن الوصول إليه، بل لو نُقِر له حجر فأُودِع فيه، وخُتِم عليه بالرصاص، لم يمنع وصول الملائكة إليه، فإن هذه الأجسام الكثيفة لا تمنع خرق الأرواح لها، بل الجن لا يمنعها ذلك، بل قد جعل الله سبحانه الحجارة والتراب للملائكة بمنزلة الهواء للطير، واتساع القبر وانفساحه للروح بالذات والبدن تبعاً، فيكون البدن في لحد أضيق من ذراع، وقد فسح له مدّ بصر تبعاً لروحه» [الروح: ١٨٥].

المطلب الثاني
عدم قدرة البشر على مشاهدتهم

ذكر ابن القيم أن الملائكة لا يُرون ولا يُشاهدون من قِبَل بني آدم، فهم يحضرون لنزع أرواح العباد، والناس حول الميت لا يرونهم ولا يشاهدونهم، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «الملائكة تنزل على المحتضر وتجلس قريباً منه، ويشاهدهم عياناً، ويتحدثون عنده، ومعهم الأكفان

والحنوط، إما من الجنة وإما من النار، ويؤمِّنون على دعاء الحاضرين بالخير أو الشر، وقد يُسلِّمون على المحتضر ويرد عليهم تارة بلفظه، وتارة بإشارته، وتارة بقلبه، حيث لا يتمكن من نطق ولا إشارة.

وقد سُمِع بعض المحتضرين يقول: أهلاً وسهلاً ومرحباً بهذه الوجوه.

وأخبرني شيخنا عن بعض المحتضرين، فلا أدري أشاهده أو أخبر عنه، أنه سُمِع وهو يقول: عليك السلام ها هنا فاجلس، وعليك السلام ها هنا فاجلس.

وقصة خير النساج رحمه الله مشهورة حيث قال عند الموت: اصبر عافاك الله، فإن ما أُمرتَ به لا يفوت، وما أُمرتُ به يفوت، ثم استدعى بماء فتوضأ وصلى، ثم قال: امضِ لما أُمرتَ به ومات.

وذكر ابن أبي الدنيا أن عمر بن عبدالعزيز لما كان في يومه الذي مات فيه قال: أجلسوني، فأجلسوه، فقال: أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت (ثلاث مرات) ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأحدَّ النظر، فقالوا: إنك لتنظر نظراً شديداً يا أمير المؤمنين، فقال: إني لأرى حضرةً ما هم بإنس ولا جن، ثم قُبض.

وقال مسلمة بن عبدالملك: لما احتضر عمر بن عبدالعزيز كنا عنده في قبة فأومأ إلينا أن اخرجوا، فخرجنا، فقعدنا حول القبة وبقي عنده وصيف، فسمعناه يقرأ هذه الآية ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣] ما أنتم بإنس ولا جان، ثم خرج الوصيف، فأومأ إلينا أن ادخلوا فدخلنا، فإذا هو قد قُبض.

وقال فضالة، بن دينار: حضرت محمد بن واسع وقد سجي للموت، فجعل يقول: مرحباً بملائكة ربي، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وشممت رائحةً طيبة لم أشم رائحة قط أطيب منها، ثم شخص ببصره فمات.

والآثار في ذلك أكثر من أن تُحْصَر وأبلغ.

ويكفي من ذلك كله قول الله عز وجل: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۞ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۞ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٥] أي أقرب إليه بملائكتنا ورسلنا ولكنكم لا ترونهم، **فهذا أول الأمر، وهو غير مرئي لنا ولا مشاهَد، وهو في هذه الدار.**

ثم يمدّ الملك يده إلى الروح فيقبضها ويخاطبها؛ والحاضرون لا يرونه ولا يسمعونه، ثم تخرج فيخرج لها نورٌ مثل شعاع الشمس، ورائحةٌ أطيب من رائحة المسك، والحاضرون لا يرون ذلك ولا يشمّونه.

ثم تصعد بين سماطين من الملائكة؛ والحاضرون لا يرونهم.

ثم تأتي الروح فتشاهد غسل البدن وتكفينه وحمله، وتقول: قدِّموني قدِّموني، أو إلى أين تذهبون بي؟ ولا يسمع الناس ذلك» [الروح:١٨٣-١٨٥].

والملائكة كانت تنزل على الرسول ﷺ ، ولكن المشركين لم يكونوا يرونهم ولا يشاهدونهم، ولذلك طلب المشركون رؤية الملائكة وهي تنزل على رسوله ﷺ على الخلقة التي خلقهم الله عليها، ولكن هؤلاء الجهلة لا يعلمون أنهم لا يستطيعون ذلك، لضعفهم، ولو رأوهم لهلكوا، وقد كان الرسول ﷺ يعاني معاناة شديدة عندما يأتيه جبريل في ملائكيته، بخلاف ما إذا جاءه في صورته البشرية، وفي هذا كله يقول ابن القيم في قوله تعالى:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [الأنعام:٨]: «يعنون ملكاً نشاهده ونراه، يشهد له ويصدقه، وإلا فالملك كان ينزل عليه بالوحي من الله، فأجاب الله تعالى عن هذا: وبيّن الحكمة في عدم إنزال الملك على الوجه الذي اقترحوه: بأنه لو أنزل ملكاً - كما اقترحوا ولم يؤمنوا ويصدقوه - لعوجلوا بالعذاب. كما جرت واستمرت به سنّته تعالى مع الكفار في آيات الاقتراح، إذا جاءتهم ولم يؤمنوا بها. فقال: ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام:٨].

ثم بيّن سبحانه: أنه لو أنزل ملكاً - كما اقترحوا - لما حصل به مقصودهم، لأنه إن أنزله في صورته لم يقدروا على التلقي عنه، إذ البشر لا يقدرون على مخاطبة الملك ومباشرته، وقد كان النبي ﷺ - وهو أقوى الخلق - إذا نزل عليه الملك كُرِب لذلك، وأخذه البُرَحاء، وتحدَّر منه العرق في اليوم الشاتي.

وإن جعله في صورة رجل: حصل لهم لبس: هل هو رجل، أم ملك؟ فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم ﴾ [الأنعام:٩] في هذه الحال (ما يلبسون) على أنفسهم حينئذ. فإنهم يقولون - إذا رأوا الملك في صورة الإنسان - هذا إنسان، وليس بملك، فهذا معنى الآية، فأين تجده مما عقد له الباب؟» [مدارج السالكين: ٣/ ٤٢٩].

وإذا كان ابن آدم لا يستطيع أن يرى الملائكة في الدنيا، فإن الديكة تستطيع ذلك، قال ابن القيم: «كل أحاديث الديك كذب إلا حديثاً واحداً: (إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، فإنها رأت ملكاً) وتمامه: (وإذا سمعتم نهيق الحمير، فتعوذوا بالله من الشيطان، فإنها رأت شيطاناً) »
[البخاري: ٣٠٣٠٠ ومسلم: ٢٧٢٩ من رواية أبي هريرة].

المطلب الثالث

لا يعلمون إلا ما أعلمهم الله به

استدل ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله تعالى: ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة:٣٢] على أن الملائكة لا تعلم إلا ما أعلمها الله به، وفي ذلك يقول: «والملائكة أتقى لله من أن تقول ما لا تعلم، وهم القائلون ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة:٣٢] وفي هذا دلالة على أن الله قد كان أعلمهم أن بني آدم سيُفسدون في الأرض، وإلا فكيف كانوا يقولون ما لا يعلمون، والله تعالى يقول - وقوله الحق - : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٧]، والملائكة لا تقول ولا تعمل إلا بما تؤمر به لا غير، قال الله تعالى: ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل:٥٠] » [مفتاح دار السعادة: ١/ ١٢٧].

المبحث الثالث

الإيمان بالملائكة أحد أصول الإيمان

بيّن العلاّمة ابن القيم رحمه الله تعالى أهمية الإيمان بالملائكة وأن الإيمان بهم أحد الأصول الخمس التي لا يتم الإيمان إلا بها، وفي ذلك يقول: «الإيمان بالملائكة عليهم السلام أحد الأصول الخمس التي هي أركان الإيمان، وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر» [إغاثة اللهفان: ٢/ ١٣١].

وقد «وكّل الله الملائكة بتدبير الدنيا، وما فيها، والجنة والنار، والموت وأحكام البرزخ، يدبرون ما يشاء الله من ذلك، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم الإيمان إلا به» [التبيان: ص٨٦ بتصرف يسير].

المبحث الرابع

الأدلة الدالة على وجود الملائكة

النصوص القرآنية الدالة على وجود الملائكة كثيرة، وفي ذلك يقول ابن القيم: «القرآن مملوء بذكر الملائكة، وأصنافهم، وأعمالهم، ومراتبهم. كقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ ﴾ [البقرة:٣٠-٣٤] إلى آخر القصة.

وقوله: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ [القدر:٤] وما بين هاتين السورتين من سور القرآن، بل لا تخلو سورة من سور القرآن عن ذكر الملائكة تصريحاً، أو تلويحاً أو إشارة.

وأما ذكرهم في الأحاديث النبوية فأكثر وأشهر من أن يُذكر» [إغاثة اللهفان: ٢/ ١٣١].

المبحث الخامس

مسكن الملائكة ومجالسهم

بيّن ابن القيم الموضع الذي تسكن فيه الملائكة، وفي ذلك يقول: «السموات مقرُّ ملائكة الرب تعالى، ومحل جزائه، ومهبط ملائكته ووحيه، فتأمل قوله: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۞ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك:١٦-١٧] » [بدائع الفوائد: ١/ ١٠٤].

وقد ينزل الله ملائكته إلى الأرض، للقيام بمهمات كلفوا بها، فتكون مجالسهم حلق الذّكر، وفي هذا يقول ابن القيم: «ليس لهم مجالس في الدنيا إلا مجلس يذكر الله تعالى فيه، كما أخرجا في الصحيحين من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «إن لله ملائكة، يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذّكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا: هلموا إلى حاجتكم. قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا.

قال: فيسألهم ربهم تعالى - وهو أعلم بهم - ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك، ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادةً وأشد لك تحميداً وتمجيداً وأكثر لك تسبيحاً. قال: فيقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب، ما رأوها. قال: فيقول: كيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبةً.

قال: فيقول: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب: ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافةً، قال: يقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم» . [البخاري: ٦٤٠٨. ومسلم: ٢٦٨٩] فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم فلهم نصيب من قوله: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم:٣١] فهكذا المؤمن مبارك أين حلّ، والفاجر مشؤوم أين حلّ فمجالس الذكر مجالس الملائكة، ومجالس الغفلة مجالس الشياطين، وكلٌّ مضاف إلى شكله وأشباهه، وكل امرئ يصير إلى ما يناسبه» [الوابل الصيب: ٧٢-٧٣].

المبحث السادس

أفضل الملائكة ورؤساؤهم

تحدث ابن القيم رحمه الله تعالى عن رؤساء الملائكة وأفضلهم، وهم ثلاث، فقال: «ورؤساؤهم الأملاك الثلاث: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وكان النبي ﷺ يقول: «اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» [مسلم: ٧٧٠، الترمذي: ٣٤٢٠] [إغاثة اللهفان: ٢/ ١٢٧].

وعقب ابن القيم رحمه الله تعالى على هذا الحديث بقوله: «فتوسل إليه سبحانه بربوبيته العامة والخاصة لهؤلاء الأملاك الثلاثة الموكلين بالحياة.

فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقَطْر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور، الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

فسأله رسوله بربوبيته لهؤلاء أن يهديه لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، لما في ذلك من الحياة النافعة» [إغاثة اللهفان: ٢/ ١٢٧].

وقال ابن القيم رحمه الله في موضع آخر مبيناً وجه اختصاص الأملاك الثلاثة بالذكر: «وذكر الله تعالى ربوبيَّته لجبريل وميكائيل وإسرافيل؛ وهذا - والله أعلم - لأن المطلوب هدًى يحيا به القلب، وهؤلاء الثلاثة الأملاك قد جعل الله تعالى على أيديهم أسباب حياة العباد:

أما جبريل؛ فهو صاحب الوحي الذي يوحيه الله إلى الأنبياء، وهو سبب حياة الدنيا والآخرة.

وأما ميكائيل فهو الموكَّل بالقَطْر الذي به سبب حياة كل شيء.

وأما إسرافيل فهو الذي ينفخ في الصور فيُحيي الله الموتى بنفخته؛ فإذا هم قيام لرب العالمين » [مفتاح دار السعادة: ١/ ٣٠٧].

المبحث السابع

جبريل فضله ومكانته

المطلب الأول

فضل جبريل عليه السلام

«جبريل أطيب الأرواح العلوية وأزكاها وأطهرها وأشرفها، وهو السفير في كل خير وهدى وإيمان وصلاح» [شفاء العليل: ٢/ ٦٢٠].

«وقد أثنى الله سبحانه على عبده جبريل في القرآن أحسن الثناء، ووصفه بأجمل الصفات فقال: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴾ [التكوير:١٥-٢١] فهذا جبريل، فوصفه بأنه رسوله، وأنه كريم عنده، وأنه ذو قوة ومكانة عند ربه سبحانه، وأنه مطاع في السموات وأنه أمين على الوحي.

فمن كرمه على ربه: أنه أقرب الملائكة إليه.

قال بعض السلف: منزلته من ربه منزلة الحاجب من الملك.

ومن قوته: أنه رفع مدائن قوم لوط على جناحه، ثم قلبها عليهم، فهو قويّ على تنفيذ ما يؤمر به، غير عاجز عنه، إذ تطيعه أملاك السموات فيما يأمرهم به عن الله تعالى.

قال ابن جرير في تفسيره، عن إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح: أمين على أن يدخل سبعين سُرادقاً من نور بغير إذن» [إغاثة اللهفان: ٢/ ١٢٧].

المطلب الثاني

صفات جبريل عليه السلام

أعظم أعمال الملائكة والبشر الرسالة، وهي إحدى المهمات الكبرى التي ناطها الله بجبريل عليه السلام ، وفي ذلك يقول ابن القيم: «إن أفضل منازل الخلق عند الله الرسالة والنبوة؛ فالله يصطفي من الملائكة رُسلاً ومن الناس، وكيف لا يكون أفضلَ الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عباده في تبليغ رسالاته وتعريف أسمائه وأفعاله وصفاته وأحكامه ومراضيه ومساخطه وثوابه وعقابه؟! وخصّهم بوحيه، واختصّهم بتفضيله، وارتضاهم لرسالته إلى عباده، وجعلهم أزكى العالمين نفوساً، وأشرفهم أخلاقاً، وأكملهم علوماً وأعمالاً، وأحسنهم خِلقةً، وأعظمهم محبة وقبولاً في قلوب الناس، وبرّأهم من كل وصم وعيب» [مفتاح السعادة ١/ ٢٩٢].

وقد وصف الله تبارك وتعالى، رسوله جبريل عليه السلام بصفات ذكرها ابن القيم، فقال: «وصف رسوله الملكي في هذه السورة بأنه كريم، قوي، مكين عند الرب تعالى، مطاع في السموات، أمين، فهذه خمس صفات تتضمن تذكية سند القرآن، وأنه سماع محمد من جبريل، وسماع جبريل من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علواً وجلالةً: قول الله سبحانه بنفسه تزكيته.

الصفة الأولى: كون الرسول الذي جاء به إلى محمد ﷺ كريماً ليس كما يقول أعداؤه: إن الذي جاء به شيطان، فإن الشيطان خبيث مخبث، لئيم، قبيح المنظر عديم الخير، باطنه أقبح من ظاهره، وظاهره أشنع من باطنه، وليس فيه ولا عنده خير فهو أبعد شيء عن الكرم.

والرسول الذي ألقى القرآن إلى محمد ﷺ كريم، جميل المنظر، بهيّ الصورة، كثير الخير، طيب مطيب معلم الطيبين. وكل خير في الأرض من هدى وعلم ومعرفة وإيمان وبرّ، فهو مما أجراه ربه على يده، وهذا غاية الكرم الصوري والمعنوي.

الوصف الثاني: أنه ذو قوة، كما قال في موضع آخر: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم:٥] وفي ذلك تنبيه على أمور:

١- أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه، وأن ينالوا منه شيئاً، وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

٢- أنه موال لهذا الرسول الذي كذبتموه، ومعاضد له، ومُوادٌّ له وناصر، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم:٤]. ومن كان هذا القوي وليّه، ومن أنصاره، وأعوانه، ومعلمه، فهو المهدي المنصور، والله هاديه، وناصره.

٣- أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليّه جبريل، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عُرضة للهلاك.

٤- أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته، فلا يعجز عن ذلك، مؤدٍّ له كما أمر به لأمانته، فهو القوي الأمين، وأحدكم إذا انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة، أو ولاية، أو وكالة أو غيرها فإنما ينتدب لها القوي عليه، الأمين على فعله، وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قوياً أميناً معظماً ذا مكانة عنده، مطاعاً في الناس، كما وصف الله عبده جبريل بهذه الصفات، وهذا يدل على عظمة شأن المرسل، والرسول، والرسالة، والمرسل إليه، حيث انتدب له الكريم القوي المكين عنده، المطاع في الملأ

الأعلى، الأمين حق الأمين، فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف، ذوي الأقدار والرتب العالية.

الوصف الثالث: مكين عند ذي العرش، وهو المذكور في قوله: ﴿ عِندَ ذِى ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير:٢٠] أي له مكانة ووجاهة عنده، وهو أقرب الملائكة إليه، وفي قوله: ﴿ عِندَ ذِى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ إشارة إلى علو منزلة جبريل، إذ كان قريباً من ذي العرش سبحانه.

الوصف الرابع: مطاع، وقد أشار بهذا الوصف إلى أن جنوده وأعوانه يطيعونه إذا ندبهم لنصر صاحبه وخليله محمد ﷺ . وفيه إشارة أيضاً إلى أن هذا الذي تكذبونه وتعادونه سيصير مطاعاً في الأرض، كما أن جبريل مطاع في السماء، وأن كلاً من الرسولين مطاع في محله وقومه. وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين في قومهم، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك المطاع.

الوصف الخامس: الأمانة، وفي وصفه بالأمانة إشارة إلى حفظه ما حمله، وأدائه له على وجهه» [التبيان في أقسام القرآن: ص٧٥-٧٦].

الصفة السادسة: جمال جبريل وبهاؤه. قال تعالى واصفاً جبريل عليه السلام ، الذي يأتي نبينا بالوحي من عند الله: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم:٥-١٧].

وقد شرح ابن القيم بعضاً من هذا النص، مركزاً على صفات جبريل الموحي للرسول ﷺ ، فقال: «أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن، مما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلّم الضلال والغواية. فقال: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ وهذا نظير قوله ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ ﴾ وذكرنا هناك السر في وصفه بالقوة.

وقوله: ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي جميل المنظر حسن الصورة ذو جلالة، ليس شيطاناً أقبح خلق الله وأشوههم صورة، بل هو من أجمل الخلق وأقواهم وأعظمهم أمانةً ومكانةً عند الله. وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة، وتزكية له، كما تقدم نظيره في سورة التكوير، فوصفه بالعلم والقوة، وجمال المنظر وجلالته، وهذه كانت أوصاف الرسول البشري والملكي. فكان رسول الله ﷺ أشجع الناس، وأعلمهم، وأجملهم، وأجلّهم، والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك، فهم أقبح الخلق صورة ومعنى، وأجهل الخلق وأضعفهم هِمماً ونفوساً.

ثم ذكر استواء هذا المعلم بالأفق الأعلى، ودنوّه وتدليه وقربه من رسول الله ﷺ ، وإيحاء الله ما أوحى، فصوّر سبحانه لأهل الإيمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده، إلى أن استوى بالأفق، ثم دنى وتدلى، وقرب من رسوله، فأوحى إليه ما أمره الله بإيحائه، حتى كأنهم يشاهدون صورة الحال ويعاينونها هابطاً من السماء إلى أن صار بالأفق الأعلى، مستوياً عليه، ثم نزل وقرب من محمد ﷺ وخاطبه بما أمره الله به، قائلاً: ربك يقول لك كذا وكذا. وأخبر سبحانه عن مسافة هذا القرب، بأنه قدر قوسين أو أدنى من ذلك، وليس هذا على وجه الشك بل تحقيق لقدر المسافة، وأنها لا تزيد عن قوسين ألبتة» [التبيان: ١٥٥].

ونقل ابن القيم عن ابن عباس أن معنى (ذي مرة) «ذو منظر حسن» وقال قتادة: «ذو خلق حسن» وقال ابن جرير: «عَنَى بالمِرَّة صحةَ الجسم وسلامته من الآفات والعاهات، والجسم إذا كان كذلك من الإنسان كان قوياً».

والمِرَّة واحدة المِرَرِ: وإنما أريد به ذو مِرَّة سَوِيَّة، ومنه قول النبي ﷺ: «لا تحلُّ الصدقة لغنيٍّ، ولا لذي مِرَّة سَوِيٍّ».

قلت: هذا حجة من قال: المرة القوة في الآية، وهو قول مجاهد وابن زيد، وهو قول ضعيف. لأنه قد وصفه قبل ذلك بأنه (شديد القُوَى).

ولا ريب أن المرَّة في الحديث هي القوة، لا المنظر الحسن، فإما أن يقال: المرة تقال على هذا وعلى هذا، وإما أن يقال - وهو الأظهر - : إن المرة هي الصحة والسلامة من الآفات والعاهات الظاهرة والباطنة، وذلك يستلزم كمال الخلقة وحُسْنها وجمالها. فإن العاهة والآفة إنما تكون من ضعف الخلقة والتركيب، فهي قوة وصحة تتضمن جمالاً وحُسْناً. والله تعالى أعلم» [إغاثة اللهفان: ٢/ ١٢٨].

المطلب الثالث

رؤية رسولنا ﷺ جبريل عليه السلام

الغصن الأول

رؤية رسولنا جبريل عليهما السلام

وقد تحدث ابن القيم عن هاتين المرتين اللتين رأى الرسول ﷺ فيهما جبريل فقال: المرة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى، والثانية كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى، وقد صح عنه ﷺ أنه جبريل عليه السلام، رآه

على صورته التي خُلق عليها مرتين، كما في الصحيحين عن زر بن حبيش أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم:٩] قال: أخبرني ابن مسعود، «أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح» [البخاري: ٣٢٣٢، ٤٨٥٦، ٤٨٥٧، ومسلم: ١٧٤].

وفي الصحيحين أيضاً عن عبدالله بن مسعود، ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ [النجم:١١] قال: «رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح». [البخاري: ٣٢٣٢، مسلم: ١٧٤] وقال البخاري، عنه: «رأى رفرفاً أخضر يسد الأفق». [البخاري: ٣٢٣٣] وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم:١٣] قال: رأى جبريل عليه السلام.

وفي صحيحه أيضاً عن مسروق قال: «كنت متكئاً عند عائشة فقالت: ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هنّ؟ قال: من زعم أن محمداً رأى ربّه فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئاً فجلست، فقال: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عز وجل ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [التكوير:٢٣]، ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ [النجم:١٣]؟.

فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض».

فقالت: أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:١٠٣] أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً

فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى:٥١] [مسلم: ١٧٧] [التبيان في أقسام القرآن: ١٥٨].

وفي الصحيحين عن مسروق أيضاً قال: «سألت عائشة رضي الله عنها، هل رأى محمد ربه؟ فقالت: سبحان الله! لقد قَفَّ شعري مما قلت» [مسلم: ١٧٧]، وفيهما أيضاً قال: قلت لعائشة: «فأين قوله عز وجل: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم:٨-٩] قالت: إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجال، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد الأفق [البخاري: ٣٢٣٥، مسلم: ١٧٧]. [التبيان في أقسام القرآن: ١٥٩].

الغصن الثاني
أهمية رؤية رسولنا جبريل عليه السلام

الإيمان برؤية الرسول ﷺ جبريل أصل الإيمان، فإن هذه الرؤية تدل دلالة صريحة أن جبريل يُرى حقيقة بالأبصار، وليس مجرد تخيل وتوهم، وفي ذلك يقول ابن القيم: «أخبر الله عن رؤية الرسول ﷺ لجبريل، وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج يُرى بالعيان، ويدركه البصر، لا كما يقول المتفلسفة، ومن قلدهم: إنه العقل الفعال، وإنه ليس مما يُدرك بالبصر، وحقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في الأعيان، وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم، وخرجوا به عن جميع الملل.

ولهذا كان تقرير رؤية النبي ﷺ لجبريل أهم من تقرير رؤيته لربّه تعالى، فإن رؤيته لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها، ومن أنكرها كفر قطعاً، وأما رؤيته لربه تعالى فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحدها

بالاتفاق، وقد صرّح جماعة من الصحابة بأنه لم يره، وحكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك، فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب أعظم من رؤية جبريل ومن دونه، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة» [التبيان في أقسام القرآن: ص٧٧].

المطلب الرابع
المهمات التي كلّف الله بها جبريل عليه السلام

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن الله اختص جبريل عليه السلام بالسفارة بينه وبين رسله من البشر، وكلفه بأعمال أخرى، فمن ذلك تكليفه بالنظر إلى الجنة والنار، ففي صحيح مسلم والسنن والمسند، من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله تعالى الجنة والنار، أرسل جبريل إلى الجنة، فقال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها وإلى ما أعدَّ الله لأهلها فيها فرجع، فقال: وعزّتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بالجنة فحُفَّت بالمكاره، فقال: فارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها ثم رجع، فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد.

قال: ثم أرسله إلى النار، قال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضاً ثم رجع، فقال: وعزتك وجلالك لا يدخلها أحد سمع بها، فأمر بها فَحُفَّت بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها، فرجع؛ فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها» [الترمذي: ٢٥٦٠].
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح [حاوي الأرواح: ٤٨-٤٩].

المطلب الخامس

تسليم جبريل على بعض أزواج النبي ﷺ

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن جبريل طلب من الرسول ﷺ أن يبلغ بعض أزواجه السلام: ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه - قال: «أتى جبريل النبي ﷺ ، فقال: (يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناءٌ فيه إدامٌ أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربِّها ومِنِّي، وبشِّرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب) » [البخاري: ٣٨٢٠، ومسلم: ٢٤٣٢].

والقصب في الحديث: اللؤلؤ المجوف، والصخب: الصياح ورفع الصوت.

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ يوماً: «يا عائش، هذا جبريل يقرئك السلام» فقالت: وعليه السلام، ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، تريد رسول الله ﷺ [رواه البخاري: ٣٧٦٨، ومسلم: ٢٤٤٧].

المبحث الثامن

أعمال الملائكة وأصنافهم

الملائكة أعداد كبيرة، وأصناف كثيرة، يقومون بأعمال السموات والأرض، قال ابن القيم في ذلك: «وقد دلَّ الكتاب والسنّة على أصناف الملائكة، وأنها موكّلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكَّل بالجبال ملائكة، ووكَّل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكَّل بالرحم ملائكة تُدبِّر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكَّل بالعبد ملائكة لحفظه، وملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكَّل بالموت ملائكة، ووكّل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكّل بالأفلاك ملائكة يُحرِّكونها، ووكّل بالشمس والقمر ملائكة، ووكّل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكّل بالجنة وعمارتها وغِراسها، وعمل الأنهار فيها ملائكة. فالملائكة أعظم جنود الله تعالى.

ومنهم: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۞ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۞ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۞ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۞ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ [المرسلات:١-٥] ومنهم: ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۞ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۞ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۞ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۞ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات:١-٥] ومنهم: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۞ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۞ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴾ [الصافات:١-٣] ومنهم: ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، وملائكة قد وُكِّلوا بحمل العرش، وملائكة قد وُكّلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يُحصيها إلا الله تعالى» [إغاثة اللهفان: ٢/ ١٢٥].

وقال ابن القيم في موضع آخر: «وقد أخبر الحق - تبارك وتعالى: أنه وكل بالرحم ملكاً، وللرؤيا ملك موكل بها، وللجنة ملائكة موكلون بعمارتها، وعمل آلاتها، وأوانيها، وغراسها وفرشها، وغرفها وأرائكها، وللنار ملائكة موكلة بعمل ما فيها وإيقادها، وغير ذلك» [التبيان: ٨٦].

المطلب الأول
التعريف بالمقسمات أمراً

يذكر ابن القيم أن بعض أهل العلم يذهبون إلى أن ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات:٤] مختصة ببعض الملائكة دون بعض، «وقيل: هم جبريل يقسم الوحي والعذاب وأنواع العقوبة على من خالف الرسل، وميكائيل على القطر والبرد والثلج والنبات، يقسمها بأمر الله، وملك الموت يقسم المنايا بين الخلق بأمر الله، وإسرافيل يقسم الأرواح على أبدانها عند النفخ في الصور، وهم المدبرات أمراً، وليس في اللفظ ما يدل على الاختصاص بهم، والله أعلم» [التبيان: ص١٧٣].

وذهب ابن القيم «أن دلالة (المقسمات أمراً) هم الملائكة، فلأن ما يشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي وما لا يشاهد إنما هو على أيدي الملائكة، فالرب تعالى يدبر بهم أمر العالم، وقد وكّل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم، فوكل بالشمس والقمر والنجوم، والأفلاك طائفة منهم، ووكل بالقطر والسحاب طائفة، ووكل بالنبات طائفة، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة، ووكل بالموت طائفة، وبحفظ بني آدم طائفة، وبإحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة، وبالوحي طائفة، وبالجبال طائفة، وبكل شأن من شؤون العالم طائفة، هذا مع ما في خلق الملائكة من البهاء

والحُسْن، وما فيهم من القوة والشدة، ولطافة الجسم، وحُسْن الخلقة، وكمال الانقياد لأمره، والقيام في خدمته، وتنفيذ أوامره في أقطار العالم» [التبيان في أقسام القرآن: ص ١٧٧].

المطلب الثاني
النازعات غرقاً

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن صفات الملائكة في أول سورة النازعات خمس ذكرها الحق - تبارك وتعالى - في قوله: ﴿ وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرۡقًا ۝ وَٱلنَّـٰشِطَـٰتِ نَشۡطًا ۝ وَٱلسَّـٰبِحَـٰتِ سَبۡحًا ۝ فَٱلسَّـٰبِقَـٰتِ سَبۡقًا ۝ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرًا ﴾ [النازعات: ١-٥]. وقال رحمه الله معقباً: «هذه خمسة أمور، وهي صفات الملائكة، فأقسم سبحانه بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال، أن ذلك من أعظم آياته» وبيّن رحمه الله تعالى أن «أكثر المفسرين على أنها الملائكة التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم، وهم جماعة كقوله: ﴿ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام:٦١] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ [النساء:٩٧] وأما قوله: ﴿ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ﴾ [السجدة:١١]. فإما أن يكون واحداً، وله أعوان، وإما أن يكون المراد الجنس لا الوحدة، كقوله: ﴿ وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ [التحريم:١٢] وقوله: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ [النحل:١٨] [التبيان: ٨٣].

ثم بيّن معنى النزع في قوله: ﴿ وَٱلنَّـٰزِعَـٰتِ غَرۡقًا ﴾ [النازعات:١] فقال: «والنزع هو اجتذاب الشيء بقوة، والإغراق في النزع هو أن يجتذبه إلى

آخره، ومنه إغراق النزع في جذب القوة، بأن يبلغ غاية المسدّ، فيقال: أغرق في النزع، ثم صار مثلاً لكل من بالغ في فعل حتى وصل إلى آخره، والغَرْق اسم مصدر أقيم مقامه كالعطاء والكلام، أقيم مقامه الإعطاء والتكلم» [التبيان: ٨٣].

ثم بيّن معنى كل من النازعات، والناشطات، والسابحات، والسابقات، والمدبرات، فقال: «أقسم الله بطوائف الملائكة وأصنافهم: فهم النازعات التي تنزع الأرواح من الأجساد، والناشطات التي تنشطها أي تخرجها بسرعة وخفة من قولهم: نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وأنا أنشط بكذا أي أخف له وأسرع. (والسابحات) التي تسبح في الهواء في طريق ممرها إلى ما أمرت به، كما تسبح الطير في الهواء (فالسابقات) التي تسبق وتسرع إلى ما أمرت به لا تبطئ عنه ولا تتأخر (فالمدبرات) أمور العباد التي أمرها ربها بتدبيرها، وهذا أولى الأقوال» [التبيان: ٨٥].

أقوال أهل العلم الذين قالوا بهذا القول:

ثم ذكر ابن القيم قول من ذهب المذهب الذي ذكره، أو كان قوله قريباً منه، وفي هذا يقول: «وقد روى عن ابن عباس: أن (النازعات) الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف. و(الناشطات) الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة. واختار الفراء هذا القول، فقال: هي الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها، وتنزع نفس الكافر. قال الواحدي: إنما اختار ذلك، لما بين النشط والنزع من الفرق في الشدة واللين، فالنزع الجذب بشدة، والنشط الجذب برفق ولين و(الناشطات) هي النفوس التي تنشط لما أمرت به، والملائكة أحق الخلق بذلك، ونفوس المؤمنين ناشطة لما أمرت به» [التبيان: ص٨٥].

المطلب الثالث

السابحات سبحاً

وقال رحمه في هذا: «وقيل (السباحات) هي النجوم تسبح في الفلك، كما قال تعالى: ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٣] وقيل: هي السفن تسبح في الماء، وقيل: هي نفوس المؤمنين تسبح بعد المفارقة صاعدة إلى ربها» [التبيان: ص٨٥].

ثم رد هذه الأقوال مبيناً السبب في ذلك، فقال: «والصحيح أنها الملائكة، والسياق يدل عليه، وأما السفن والنجوم فإنها تسمى جارية وجواري كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾ [الشورى:٣٢] وقال: ﴿ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة:١١] وقال: ﴿ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ [التكوير:١٦] ولم يسمِّها سابحات، وإن أطلق عليها فعل السباحة، كقوله: ﴿ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٣] ويدل عليه ذكره السابقات بعدها والمدبرات بالفاء، وذكره الثلاثة الأول بالواو، لأن السبق والتدبير مسبب عن المذكور قبله، فإنها نزعت ونشطت وسبحت، فسبقت إلى ما أمرت به فدبرته، ولو كانت السابحات هي السفن أو النجوم أو النفوس الآدمية لما عطف عليها فعل السبق والتدبير بالفاء. فتأمله» [التبيان: ٨٥].

المطلب الرابع

المدبـرات أمـراً

ذكر ابن القيم: «أن الله سبحانه وكَّل بالعالم العلوي والسفلي ملائكة، فهي تدبر أمر العالم بإذنه ومشيئته وأمره، فلهذا يضيف التدبير إلى الملائكة

تارةً، لكونهم هم المباشرين للتدبير، كقوله: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات:٥] ويضيف التدبير إليه كقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ [يونس:٣] وقوله: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس:٣١]. فهو المدبر أمراً وإذناً ومشيئة، والملائكة المدبرات مباشرة وامتثالاً.

وهذا كما أضاف التوفي إليهم تارة، كقوله: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام:٦١] وإليه تارة، كقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ ﴾ [الزمر:٤٢] ونظائره» [إغاثة اللهفان: ٢/ ١٣٠].

المطلب الخامس

الناشرات نشرا

نقل ابن القيم رحمه الله تعالى عن بعض أهل العلم أن المراد بالناشرات نشراً: «الملائكة تنشر كتب بني آدم وصحائف أعمالهم، وقاله مسروق، وعطاء عن ابن عباس، وقالت طائفة: هي الملائكة تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها، وقيل: تنشر أوامر الله في الأرض والسماء، وقيل: تنشر النفوس، فتحييها بالإيمان، وقال أبو صالح: هي الأمطار تنشر الأرض، أي: تحييها» [التبيان: ٩١].

المطلب السادس

السابقات سبقاً

نقل ابن القيم رحمه الله تعالى عن بعض أهل العلم أن (السابقات سبقاً) الملائكة سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح والإيمان والتصديق، وهذا قول مجاهد، ونقل عن مقاتل أنها تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

ونقل عن الفراء والزجاج أنها الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء إذا كانت الشياطين تسترق السمع.

ولم يرضَ هذا القول ورده قائلاً: «هذا القول خطأ لا يخفى فساده، إذ يقتضي الاشتراك بين الملائكة والشياطين في إلقائهم الوحي، وأن الملائكة تسبقهم به إلى الأنبياء، وهذا ليس بصحيح، فإن الوحي الذي تأتي به الملائكة إلى الأنبياء لا تسترقه الشياطين، وهم معزولون عن سماعه وإن استرقوا بعض ما يسمعونه من ملائكة السماء الدنيا من أمور الحوادث، فالله سبحانه صان وحيه إلى الأنبياء أن تسترق الشياطين شيئاً منه، وعزلهم عن سمعه.

ولو أن قائل هذا القول فسر السابقات بالملائكة التي تسبق الشياطين بالرجم بالشهب قبل إلقاء الكلمة التي استرقها لكان له وجه، فإن الشيطان يبدر مسرعاً بإلقائه إلى وليه، فتسبقه الملائكة في نزوله بالشهب الثواقب فتهلكه، وربما ألقى الكلمة قبل إدراك الشهاب له» .

أقوال أخرى :

وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى: أن ﴿ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ﴾ [النازعات:٤].

«فسرت بالأنفس السابقات إلى طاعة الله ومرضاته.

وأما ﴿ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴾ فأجمعوا على أنها الملائكة، قال مقاتل: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت: يدبرون أمر الله تعالى في الأرض، وهم ﴿ المقسمات أمراً ﴾، قال عبدالرحمن بن سابط: جبريل موكل بالرياح وبالجنود، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، وملك الموت

موكل بقبض الأنفس، وإسرافيل ينزل بأمر الله عليهم، وقال ابن عباس: هم الملائكة، وكّلهم الله بأمور عرفهم العمل بها والوقوف عليها، بعضهم لبني آدم يحفظون ويكتبون، وبعضهم وكّلوا بالأمطار والنبات والخسف والمسخ، والرياح والسحاب، انتهى» [التبيان: ٨٦].

المطلب السابع
مجيء الملائكة الرسول ﷺ في منامه

كانت الملائكة تأتي الرسول ﷺ في منامه، وتضرب له الأمثال، فمن ذلك مجيئها له وهو نائم بعد أن قابل وفداً من الجن، قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

«وصحح الترمذي من حديث عبدالله بن مسعود قال: صلى رسول الله ﷺ العِشاء ثم انصرف، فأخذ بيدي حتى خرج بي إلى بطحاء مكة، فأجلسني ثم خطّ عليّ خطّاً، ثم قال: «لا تبرحن خطّك فإنه سينتهي إليك رجال فلا تكلّمهم فإنهم لا يكلمونك» ثم مضى رسول الله ﷺ حيث أراد، فبينما أنا جالس في خطي إذ أتاني رجال كأنهم الزُّطُّ، أشعارهم وأجسامهم، لا أرى عورةً ولا أرى قشراً، وينتهون إليّ لا يُجاوزون الخط، ثم يصدرون إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان آخر الليل، لكن رسول الله ﷺ قد جاءني وأنا جالس فقال: لقد رآني منذ الليلة، ثم دخل عليّ في خطّي، فتوسّد فخذي، فرقد.

وكان رسول الله ﷺ إذ رقد نفخ، فبينا أنا قاعد ورسول الله ﷺ متوسّد فخذي إذا برجال عليهم ثياب بيض الله أعلم ما بهم من الجمال، فانتهوا إليّ، فجلس طائفة منهم عند رأس رسول الله ﷺ ، وطائفة منهم عند رجليه، ثم قالوا: ما رأينا عبداً قد أوتي مثل ما أوتي هذا النبي، إن

عينيه تنامان وقلبه يقظان، اضربوا له مثلاً، مثل سيد بني قصراً ثم جعل مأدبة فدعا الناس إلى طعامه وشرابه، فمن أجابه أكل من طعامه وشرب من شرابه، ومن لم يجبه عاقبه أو قال: عذبه، ثم ارتفعوا.

واستيقظ رسول الله ﷺ عند ذلك فقال: «سمعت ما قال هؤلاء؟ وهل تدري من هم؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «هم الملائكة، فتدري ما المثل الذي ضربوه؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «الرحمن بنى الجنة، ودعا إليها عباده، فمن أجابه دخل الجنة ومن لم يجبه عذبه» [الترمذي: ٢٨٦١، وقال فيه: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه] [حادي الأرواح: ١١٢].

مجيء ملك بصورة عائشة في سرقة من حرير:

قال ابن القيم: «ومن خصائص عائشة أن الملك أرى صورتها للنبي ﷺ قبل أن يتزوجها في سرقة حرير، فقال النبي ﷺ : (إن يكن هذا من عند الله يُمْضِه) [جلاء الأفهام: ٢٤٠].

وهذا الحديث الذي أشار إليه ابن القيم روته عائشة: أن النبي ﷺ قال لها: «أريتك في المنام مرتين، أرى أنك في سرقة من حرير، ويقول: هذه امرأتك، فاكشف عنها، فإذا هي أنت، فأقول: إن يك هذا من عند الله يمضه» [البخاري: ٣٨٩٥، ومسلم: ٢٤٣٨].

المطلب الثامن

تبشير الملك الرسول ﷺ بأجر من صلى عليه

يذكر ابن القيم أن بعض الملائكة جاء إلى الرسول ﷺ ، وبشره بأجر من صلّى عليه، فعن أبي طلحة الأنصاري، قال: «أصبح رسول الله - ﷺ

- يوماً طيِّب النفس، يُرى في وجهه البِشْر، قالوا: يا رسول الله أصبحت اليوم طيِّبَ النفس يُرى في وجهك البشر، قال: «أجل أتاني آتٍ من ربي - عز وجل - فقال: من صلى عليك من أمتك صلاة، كتب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، وردّ عليه مثلها» [عزاه ابن القيم ومحققا الكتاب إلى أحمد في مسنده].

حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن سلمان مولى الحسن بن علي، عن عبدالله بن أبي طلحة، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يُرى في وجهه، فقالوا: يا رسول الله إنا لنرى السرور في وجهك؟ فقال: «أتاني الملك، فقال: يا محمد أما يُرضيك أن ربك - عز وجل - يقول: إنه لا يُصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يُسلِّم عليك أحد من أمتك إلا سلّمت عليه عشراً، قال: بلى» .

ورواه النسائي من حديث ابن المبارك وعفان عن حماد [النسائي: ١٢٨٣، وحسّنه الألباني في صحيح النسائي].

ورواه ابن حبان في «صحيحه» أيضاً من حديث حمّاد. [وعزاه محققا الكتاب إلى أحمد في مسنده، والنسائي، وابن حبان، وقالا: حديث صحيح بطرقه، وله شاهد من حديث أنس عند إسماعيل القاضي، وآخر من حديث عمر عنده أيضاً].

وذكر ابن القيم أن جبريل جاء إلى الرسول ﷺ ، ودعا على من أدرك أبويه أحدهما أو كلاهما فلم يدخلاه الجنة، أو أدرك رمضان، فلم يغفر له، أو ذكر عنده الرسول ﷺ فلم يصلِ عليه، يقول ابن القيم: «وقال جعفر الفريابي: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا الفضل بن دُكين، حدثنا سلمة ابن وَردان قال: سمعت أنساً يقول: ارتقى رسول الله ﷺ المنبر، فرَقِيَ درجة فقال: آمين، ثم ارتقى درجة، فقال: آمين، ثم ارتقى الثالثة، فقال: آمين، ثم استوى، فجلس، فقال أصحابه: أيْ نبيُّ الله علامَ أمّنت؟ فقال: (أتاني

جبريل فقال: رغم أنف امرئ أدرك أبويه الكِبَر أو أحدهما، لم يدخل الجنة، فقلت: آمين، ورغم أنف امرئ أدرك رمضان، فلم يُغفر له، قلت: آمين، قال: ورغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك، فقلت: آمين) » [هذا الحديث ذكره ابن القيم في مواضع من كتابه جلاء الأفهام، انظر ص: ٢٦٧، ١١٣، ١١٤، ١١٥، وهذا الحديث كما ذكر محقق جلاء الأفهام إسناده ضعيف، لكنه صحيح لشواهده].

المطلب التاسع

ضيف نبي الله إبراهيم من الملائكة

تحدث ابن القيم عن ضيف إبراهيم من الملائكة الذين أرسلهم الله لتدمير قوم لوط، وهم المذكورون في قوله: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۞ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۞ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۞ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات:٢٣-٢٧].

وذكر ابن القيم أن الله وصف ضيف إبراهيم أنهم مكرمون، أي من عند الله ومن إبراهيم، وذكر أنهم قالوا لإبراهيم عليه السلام : سلاماً بالنصب، والمعنى: سلمنا سلاماً.

وذكر ابن القيم أن إبراهيم نكِرَ القوم في قلبه، ولم يعرفهم، كما ذكر أنهم لم يأكلوا، ولذلك عرض عليهم الطعام، وطالبهم بالأكل [جلاء الأفهام: ص٢٧١، باختصار].

المطلب العاشر

الحركة في السماوات والأرض ناشئة من الملائكة

بيّن ابن القيم رحمه الله تعالى أن: «كل حركة في السموات والأرض من حركات الأفلاك، والنجوم، والشمس، والقمر، والرياح، والسحاب،

والنبات، والحيوان، فهي ناشئة عن الملائكة الموكَّلين بالسموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات:٥] وقال: ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات:٤] وهي الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل عليهم السلام، وأما المكذبون للرسل، المنكرون للصانع، فيقولون: هي النجوم» [إغاثة اللهفان: ٢/ ١٢٥].

وقد بيّن رحمه الله تعالى أن الحركات في العالم العلوي والسفلي إما إرادية، أو طبيعية، أو قسرية.

فالإرادية تكون صادرة من شعور بحركة المتحرك وإرادة لها، فإن لم يكن له شعور بحركته، أو له بها شعور، وهو غير مريد لها، فحركته على وفق طبعه، أو على خلافه، فالأولى طبعية والثانية قسرية [إغاثة اللهفان: ٢/ ١٢٥].

المبحث التاسع

الملائكة وآدم عليهم السلام

المطلب الأول

إعلام الله ملائكته بجعله آدم وذريته خلفاء الأرض

قبل أن يخلق الله آدم عليه السلام ، أخبر الله ملائكته بما سيجري به قدره مما تقرّر في علمه من إيجاد آدم وزوجه وذريته، وحدثنا عن ذلك في محكم التنزيل: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠] فقالت الملائكة لرب العزة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة:٣٠] فأجابهم قائلاً: ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠] .

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى متحدثاً عن العلم الذي لم يظهر للملائكته: عندما قال لهم ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾: «ثم أظهر سبحانه علمه لعباده وللملائكته بما جعله في الأرض من خواص خلقه، ورسله وأنبيائه وأوليائه، ومن يتقرّب إليه ويبذل نفسه في محبّته ومرضاته مع مجاهدة شهوته وهواه، فيترك محبوباته تقرّباً إليّ، ويترك شهواته ابتغاء مرضاتي، ويبذل دمه ونفسه في محبّتي، وأخصه بعلم لا تعلمونه؛ يسبح بحمدي آناء الليل وأطراف النهار، ويعبدني مع معارضات الهوى والشهوة والنفس والعدوّ إذ تعبدونني أنتم من غير معارض يعارضكم، ولا شهوة تعتريكم ولا عدو أسلطه عليكم، بل عبادتكم لي بمنزلة النفس لأحدِهِم.

وأيضاً؛ فإني أريد أن أظهر ما خفِيَ عليكم من شأن عدوِّي ومُحاربته لي وتكبّره عن أمري وسعيه في خلاف مرضاتي.

وهذا وهذا كانا كامنين مستترين في أبي البشر وأبي الجن فأنزلهم داراً أظهر فيها ما كان الله سبحانه منفرداً بعلمه لا يعلمه سواه، وظهرت حكمته وتمّ أمره، وبدا للملائكة من علمه ما لم يكونوا يعلمون» [مفتاح دار السعادة: ١/١٠٨].

المطلب الثاني
تسليم آدم على الملائكة

أورد ابن القيم رحمه الله تعالى حديثاً يخبر فيه الرسول ﷺ أن الله أمر آدم عليه السلام بعد خلقه أن ذهب إلى نفر من الملائكة جلوس، فيسلم عليهم، ويستمع إلى ما يحيونه به، فإنه تحيته وتحية أمته.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبدالرزاق، قال: حدثنا معمر، عن همّام، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ : «خلق الله عز وجل آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قال له: اذهب فسلّم على أولئك النفر، وهم نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك. قال: فذهب، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله قال: فكلّ من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعاً، فلم يزل ينقص الخلق بعده حتى الآن» متفق على صحته [البخاري: ٣٣٢٦، ٦٢٢٧، مسلم: ٢٨٤١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون وعفان بن مسلم قالا: حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جدعان، عن سعيد بن المسيب، عن

أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «يدخل أهل الجنة الجنة جُرْداً مُرْداً بيْضاً جِعاداً مكحّلين، أبناء ثلاث وثلاثين، وهم على خلق آدم: ستون ذراعاً في عرض سبعة أذرع» قيل: تفرد به حمّاد عن عليّ بن زيد.

وروى الترمذي في جامعه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «لما خلق الله آدم، ونفخ فيه الروح عطس، فقال: الحمد لله، فحمد الله بإذنه، فقال له ربه: يرحمك الله يا آدم، اذهب إلى أولئك الملائكة، إلى ملأٍ منهم جلوس فقل: السلام عليكم. قالوا: وعليك السلام، ثم رجع إلى ربه، فقال: إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم.

فقال الله له ويداه مقبوضتان، اختر أيهما شئت، فقال: اخترتُ يمين ربيّ وكلتا يديه يمين مباركة ثم بسطها، فإذا فيها آدم وذريته. فقال: يا رب ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فإذا كل إنسان مكتوب عمره بين عينيه، فإذا فيهم رجل أضوؤهم، قال: يا رب من هذا؟ قال: هذا ابنك داود قد كتب له عمر أربعين سنة، قال: يا رب زده في عمره، قال: ذلك الذي كتبت له، قال: أي رب فإني قد جعلت له من عمري ستين سنة! قال: أنت وذلك.

قال: ثم أسكِن الجنة ما شاء الله، ثم أُهبِط منها، فكان آدم يعدُّ لنفسه، فأتاه ملك الموت، فقال له آدم: قد عجّلت، قد كُتب لي ألف سنة، قال: بلى، ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة، فجحد فجحدت ذريته، ونُسّي فنَسيَتْ ذريته: قال: فمن يومئذ أُمِرَ بالكتاب والشهود» قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة [حادي الأرواح: ٦٦-٦٧] [والحديث رواه الترمذي: ٣٣٦٨، وقال الترمذي فيه: حسن غريب من هذا الوجه. وأورد الألباني في صحيح الترمذي وقال فيه: حسن صحيح].

المبحث العاشر
الملائكة وبنو آدم

المطلب الأول
الملائكة موكلون بالإنسان منذ أن يكون نطفة

الملائكة موكلون بالإنسان منذ بداية أمره، وهم موكلون به في هذه الحياة، وفي البرزخ، وفي الآخرة، وفي ذلك يقول ابن القيم: «والملائكة الموكَّلة بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أمره لهم وله شأن آخر، فإنهم موكلون بتخليقه، ونقله من طور إلى طور، وتصويره، وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث، وكتابة رزقه، وعمله، وأجله، وشقاوته، وسعادته، وملازمته في جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله، وحفظه في حياته، وقبْض روحه عند وفاته، وعرضها على خالقه وفاطره، وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ، وبعد البعث، وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب، وهم المثبتون للعبد المؤمن بإذن الله، والمعلمون له ما ينفعه، والمقاتلون الذابون عنه، وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة، وهم الذين يُرُوْنَه في منامه ما يخافه ليحذره، وما يحبه ليقوِّي قلبه، ويزداد شكراً، وهم الذين يعدونه بالخير، ويدعونه إليه، وينهونه عن الشر، ويحذرونه منه.

فهم أولياؤه وأنصاره، وحفظته، ومُعلموه، وناصحوه، والداعون له، والمستغفرون له، وهم الذين يُصلّون عليه ما دام في طاعة ربه، ويصلون عليه ما دام يُعلم الناس الخير، ويُبشرونه بكرامة الله تعالى في منامه، وعند

موته، ويوم بعثه، وهم الذين يزهدونه في الدنيا، ويرغّبونه في الآخرة، وهم الذين يذكّرونه إذا نسيَ، ويُنشّطونه إذا كَسِلَ، ويُثبّتونه إذا جزع، وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته.

فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، تتنزل بالأمر من عنده في أقطار العالم، وتصعد إليه بالأمر، قد أطّت بهم السماء، وحُقّ لها أن تئطّ. ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم، أو راكع أو ساجد، ويدخل البيت المعمور كل يوم منهم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم». [عزاه محقق إغاثة اللهفان إلى ابن مردويه عن أنس، كما ذكر السيوطي في الجامع الصغير، ومعنى الأطيط: صوت الرحل إذا كان جديداً، وعليه ثقل الراكب أو الحمل] [إغاثة اللهفان: ٢/ ١٣٠].

المطلب الثاني
قرين الإنسان من الملائكة

حدثنا ابن القيم عن القرين الملائكي الذي يصحب كل عبد من عباد الله في دنياه، والقرين ملكان أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٧-١٨].

وبيّن رحمه الله تعالى: «أن الله أخبر عن أحوال الخلق في يوم القيامة، وأن كل أحد يأتي الله سبحانه يوم القيامة، ومعه سائق يسوقه، وشهيد يشهد عليه» [الجواب الكافي:١٧].

«ثم أخبر سبحانه أن قرينه، وهو الذي قرن به في الدنيا من الملائكة، يكتب عمله وقوله، يقول لما يحضره: هذا الذي كنت وكّلتني به في الدنيا قد

أحضرته وأتيتك به، هذا قول مجاهد. وقال ابن قتيبة: المعنى هذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي، والتحقيق أن الآية تتضمن الأمرين، أي هذا الشخص الذي وكلت به، وهذا عمله الذي أحصيته عليه، فحينئذ يقال: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ [ق:٢٤]، وهذا إما أن يكون خطاباً للسائق والشهيد، أو خطاباً للملك الموكل بعذابه وإن كان واحداً، هو مذهب معروف من مذاهب العرب في خطابها، أو تكون الألف منقلبة عن نون التوكيد الخفيفة، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف» [الفوائد: ص١٨].

المطلب الثالث

نصح الملائكة لبني آدم

يقرر ابن القيم أن الملائكة تنصح بني آدم، وتستغفر لهم، وتنفعهم، وفي ذلك يقول: «الملائكة أنصح خلق الله وأنفعهم لبني آدم، على أيديهم حصل لهم كل سعادة وعلم وهدى، ومن نفعهم لبني آدم ونصحهم أنهم يستغفرون لمسيئهم، ويثنون على مؤمنيهم، ويعينونهم على أعدائهم من الشياطين، ويحرصون على مصالح العبد أضعاف حرصه على مصلحة نفسه، بل يريدون له من خير الدنيا والآخرة ما لا يريد العبد ولا يخطر له ببال؛ كما قال بعض التابعين: وجدنا الملائكة أنصح خلق الله لعباده، ووجدنا الشياطين أغشّ الخلق للعباد.

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۞ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ

ٱلْحَكِيمُ ۞ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [غافر:٧-٩] فأي نصح للعباد مثل هذا إلا نصح الأنبياء» [مفتاح دار السعادة: ١/ ٢٥٥].

وذكر في موضع آخر إذا وقاهم سبحانه عمل السيئ، وقاهم جزاء السيئ» [الجواب الكافي:١٦٧].

وقد بيّن ابن القيم رحمه الله تعالى ما في الآيات السابقة من ثناء على حملة العرش من الملائكة ومن حوله، وما كان منهم تجاه المؤمنين، وفي ذلك يقول: «وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان، والعمل الصالح، والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم، وقدموا بين يدي استغفارهم توسلهم إلى الله سبحانه بسعة علمه، يتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها، وضعفهم عن العصمة، واستيلاء عدوهم وأنفسهم، وهواهم وطباعهم، وما زين لهم من الدنيا وزينتها، وعلمه بهم إذ أنشأهم من الأرض وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم، وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه، وأنه يحب العفو والمغفرة وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبته، فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء، ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله، وهو صراحة الموصل إليه الذي هو معرفته ومحبته وطاعته فيما أمر، وترك ما يكره، فتابوا مما يكره واتبعوا السبيل التي يحبها.

ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم، وأن يدخلهم والمؤمنين، من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التي وعدهم بها، وهو سبحانه

وإن كان لا يخلف الميعاد، فإنه وعدهم بها بأسباب، من جملتها: دعاء الملائكة لهم بأن يدخلهم إياها، يدخلونها برحمته التي هي منها إن وفقهم لأعمالها وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها» . [الجواب الكافي:١٦٨].

المطلب الرابع

صحبة العبد للملك أنفع شيء له

يرى ابن القيم رحمه الله أن من أنفع الأمور للعبد أن يصاحب لملك، ويقترب منه، وفي ذلك يقول:

«ليس شيء أنفع للعبد من صحبة الملك له، وهو وليه في يقظته ومنامه، وحياته وعند موته، وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدثه في سرّه، ويحارب عنه عدوه، ويدافع عنه، ويعينه عليه، ويعده بالخير، ويبشره به، ويحثه على التصديق بالحق، كما جاء في الأثر الذي يروى مرفوعاً وموقوفاً: «للملك بقلب ابن آدم لمة وللشيطان لمة، فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان، إيعاد بالشر، وتكذيب بالحق» [عزاه محقق الجواب الكافي إلى الترمذي، وهو حديث غريب، اي ضعيف].

وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه، وألقى على لسانه القول السديد، وإذا بعد منه وقرب الشيطان من العبد، تكلم على لسانه قول الزور والفحش، حتى يرى الرجل يتكلم على لسان الملك، والرجل يتكلم على لسان الشيطان [عزاه محقق الجواب الكافي إلى الهيثمي في المجمع ٩/ ٧٠ وعزاه إلى الطبراني بإسناد حسن إلى ابن مسعود موقوف عليه] .

وفي الحديث: «أن السكينة تنطق على لسان عمر ﷺ» ، وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول: ما ألقاها على لسانك

إلا الملك، ويسمع ضدها، فيقول: ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان، فالملك يلقي في القلب الحق، ويلقيه على اللسان، والشيطان يلقي الباطل في القلب، ويجريه على اللسان» [الجواب الكافي: ١٥٧].

ويمد ابن القيم النفس في الموضوع نفسه، فيقول: «فمن عقوبة المعاصي أنها تبعد من العبد وليه الذي سعادته في قربه ومجاورته وموالاته، وتدني منه عدوه الذي شقاؤه وهلاكه وفساده في قربه وموالاته، حتى إن الملك لينافح عن العبد، ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبّه، كما «اختصم بين يدي النبي ﷺ رجلان، فجعل أحدهما يسب الآخر، وهو ساكت، فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه، فقام النبي ﷺ فقال: يا رسول الله لما رددت عليه بعض قوله قمت، فقال: كان الملك ينافح عنك، فلما رددت عليه جاء الشيطان فلم أكن لأجلس» [عزاه محقق الجواب الكافي إلى ابي داود مرسلاً من حديث سعيد بن المسيب، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: ١٧٥٨].

وإذا دعا العبد المسلم بظهر الغيب لأخيه أمن الملك على دعائه فقال: «ولك بمثل ذلك» [عزاه محقق كتاب الجواب الكافي إلى مسلم وأحمد وأبي داود وابن ماجه] وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمن على دعائه، فإذا أذنب العبد الموحد المتبع سبل الله وسنّة رسوله ﷺ استغفر له حملة العرش ومن حوله، وإذا نام العبد المؤمن بات في شعاره ملك، فملك المؤمن يرد عنه ويحارب ويدافع عنه ويعلمه، ويثبته ويشجعه.

فلا يليق بالمؤمن أن ينسى جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده، فإنه ضيفه وجاره، وإذا كان إكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لوازم الإيمان وموجباته، فما الظن بإكرام أكرم الأضياف، وخير الجيران وأبرهم؟» [الجواب الكافي ص٥٨].

وذكر ابن القيم أن العبد يصحب الملك ويدنيه منه إن هو اشتغل بالإيمان والعبادة للرحمن، ويطرده منه ويقصيه إن اشتغل بالذنوب والمعاصي، وفي ذلك يقول: «من عقوبة المعاصي أنها تباعد عن العبد وليه، وأنصح الخلق له، وأنفعهم له، ومن سعادته في قربه منه، وهو الملك الموكل به، وتدني منه عدوه وأغش الخلق، وأعظمهم ضرراً له، وهو الشيطان، فإن العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية، حتى إنه يتباعد منه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة، وفي الآثار: «إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلاً من نتن ريحه» [ضعفه محقق الجواب الكافي، وعزاه إلى الترمذي، وقال فيه الترمذي: حسن غريب]. فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة، فماذا يكون قدر تباعده منه مما هو أكبر من ذلك، وأفحش منه!!

وقال بعض السلف: إذا ركب الذكر الذكر عجت الأرض إلى الله، وهربت الملائكة إلى ربها، وشكت إليه عظم ما رأت.

وقال بعض السلف: إذا أصبح ابن آدم ابتدره الملك والشيطان، فإن ذكر الله وكبره وحمده وهلّله طرد الملك الشيطان وتولاه، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان.

ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له، فتتولاه الملائكة في حياته، وعند موته وعند مبعثه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [فصلت:٣٠-٣١] وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق له، وأنفعهم وأبرّهم به فثبته وعلمه، وقوى جنانه، وأيّده قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى

مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [الأنفال:١٢] ويقول الملك للعبد عند الموت «لا تخف ولا تحزن وأبشر بالذي يسرك» ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون إليه في الحياة الدنيا. وعند الموت وفي القبر عند المسألة» [الجواب الكافي: ١٥٦].

المطلب الخامس

قلب الإنسان بين لمة الملك ولمة الشيطان

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى مبيناً هذه الحقيقة بقوله: «وإذا تأملت حال القلب مع الملك والشيطان رأيت أعجب العجائب، فهذا يلم به مرة، وهذا يلم به مرة، فإذا ألم به الملك حدث من لمته الانفساح، والانشراح، والنور، والرحمة، والإخلاص، والإنابة، ومحبة الله، وإيثاره على ما سواه، وقصر الأمل، والتجافي عن دار البلاء، والامتحان، والغرور، فلو دامت له تلك الحالة لكان في أهنأ عيش وألذه وأطيبه، ولكن تأتيه لَمّة الشيطان، فتحدث له من الضيق، والظلمة، والهم، والغم، والخوف، والسخط على المقدور، والشك في الحق، والحرص على الدنيا وعاجلها، والغفلة عن الله - ما هو من أعظم عذاب القلب.

ثم للناس في هذه المحنة مراتب لا يحصيها إلا الله: فمنهم من تكن لمة الملك أغلب من لمة الشيطان وأقوى، فإذا ألم به الشيطان وجد من الألم والضيق، والحصر، وسوء الحال بحسب ما عنده من حياة القلب، فيبادر إلى طرد تلك اللمة ولا يدعها تستحكم فيصعب تداركها، فهو دائماً في حرب بين اللمتين، يدال له مرة، ويدال عليه مرة أخرى، والعاقبة للتقوى.

ومنهم من تكون لمة الشيطان أغلب عليه وأقوى، فلا تزال تغلب لمة الملك حتى تستحكم، ويصير الحكم لها، فيموت القلب، ولا يحس ما ناله

الشيطان به، مع أنه في غاية العذاب والضيق والحصر، ولكن سكر الشهوة والغفلة حجب عنه الإحساس بذلك الألم، فإذا كشف أمكنه تداركه بالدواء وحسمه، وإن عاد الغطاء عاد الأمر كما كان، حتى ينكشف عنه وقت المفارقة للدنيا، فتظهر حينئذ تلك الآلام والهموم والغموم والأحزان، وهي لم تتجدد له، وإنما كانت كامنة تواريها الشواغل، فلما زالت الشواغل ظهر ما كان كامناً وتجدد له أضعافه.

والشيطان يلم بالقلب لما كان هناك من جواذب تجذبه، وهي نوعان: صفات وإرادات، فإذا كانت الجواذب صفات قوي سلطانه هناك، واستفحل أمره، ووجد موطئاً ومقراً، فتأتي الأذكار والدعوات والتعوذات كحديث النفس، لا تدفع سلطان الشيطان، لأن مركبه صفة لازمة، فإذا قلع العبد تلك الصفات وعمل على التطهر منها والاغتسال، بقي للشيطان بالقلب خطرات ووساوس ولمات من غير استقرار، وذلك يضعفه، ويقوي لمة الملك، فتأتي الأذكار، والدعوات والتعوذات، فتدفعه بأسهل شيء.

وإذا أردت لذلك مثالاً مطابقاً: فمثله مثل كلب جائع شديد الجوع، وبينك وبينه لحم أو خبز، وهو يتأملك ويراك لا تقاومه وهو أقرب منك، فأنت تزجره، وتصيح عليه، وهو يأبى إلا التحوم عليك، والغارة على ما بين يديك، فالأذكار بمنزلة الصياح عليه والزجر له، ولكن معلومه ومراده عندك، وقد قربته عليك فإذا لم يكن بين يديك شيء يصلح له وقد تأملك فرآك أقوى منه فإنك تزجره وتصيح عليه فيذهب، وكذلك القلب الخالي عن قوة الشيطان ينزجر بمجرد الذكر.

وأما القلب الذي فيه تلك الصفات التي هي مركبه وموطنه، فيقع الذكر في حواشيه وجوانبه، ولا يقوى على إخراج العدو منه، ومصداق ذلك تجده في الصلاة، فتأمل في الحال، وانظر هل تخرج الصلاة بأذكارها

وقراءتها الشيطان من قلبك، وتفرغه كله لله تعالى بكليته وتقيمه بين يدي ربه مقبلاً بكليته عليه، يصلي لله تعالى، كأنه يراه، قد اجتمع همه كله على الله؟ وصار ذكره ومراقبته ومحبته والأنس به في محل الخواطر والوساوس أم لا؟ والله المستعان.

وههنا نكتة ينبغي التفطن لها، وهي أن القلوب الممتلئة بالأخلاط الرديئة. فالعبادات، والأذكار والتعوذات، أدوية لتلك الأخلاط كما يثير الدواء أخلاط البدن، فإن لم يكن قبل الدواء وبعده حمية لم يزد الدواء على إثارته، وإن أزال منه شيئاً ما، فمدار الأمر على شيئين: الحمية، واستعمال الأدوية» [التبيان في أقسام القرآن: ٢٦٢-٢٦٣].

المطلب السادس

لو تكونون على التي انتم عليه عندي لصافحتكم الملائكة

أورد ابن القيم حديثاً أخبر فيه الرسول ﷺ أصحابه، أنهم لو يبقون على الحال التي يكونون عليها عنده لصافحتهم الملائكة، وفي ذلك يقول ابن القيم:

«قال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر وأبو كامل قالا: أنبأنا زهير، حدثنا سعد الطائي، حدثنا أبو المُدِلَّة مولى أم المؤمنين، سمع أبا هريرة يقول: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا رأيناك رقّت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا، وشممنا النساء والأولاد.

قال: «لو تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفّهم، ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر الله لهم» .

قال: قلنا: يا رسول الله، حدثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: «لبنة ذهب ولبنة فضة، ومِلاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم لا يَبؤس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه، ثلاثة لا تُرَدّ دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام، وتفتح لها أبواب السماوات، ويقول الرب: وعزّتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين» [أحمد: ٨٠٤٣، وقال محقق المسند: حديث صحيح بطرقه وشواهده] [حادي الأرواح: ١٩٥].

المطلب السابع

استغفار الملائكة للذاكر وللتائب من بني آدم

يقول ابن القيم في توضيح هذا المعنى: «إن الملائكة تستغفر للذاكر كما تستغفر للتائب، كما روى حسين المعلم عن عبدالله بن بريدة عن عامر الشعبي عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: أجد في كتاب الله المنزل أن العبد إذا قال: «الحمد لله» قالت الملائكة: «رب العالمين» ، وإذا قال: «الحمد لله رب العالمين» قالت الملائكة: «اللهم اغفر لعبدك» وإذ قال: «سبحان الله» قالت الملائكة: «وبحمده» ، وإذا قال: «سبحان الله وبحمده» قالت الملائكة: «اللهم اغفر لعبدك» وإذا قال: «لا إله إلا الله» قالت الملائكة: «اللهم اغفر لعبدك» [الوابل الصيب: ص٧٩].

المطلب الثامن

الملائكة والعلماء وطلبة العلم

تحدث ابن القيم في أكثر من موضع في كتبه عن علاقة الملائكة بالعلماء وطلبة العلم، وسأجمع ما تفرق في كتبه في هذا الموضوع.

الغصن الأول

وضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم

يقول ابن القيم في ذلك: «ووضع الملائكة أجنحتها له تواضعاً وتوقيراً وإكراماً لما يحمله من ميراث النبوة ويطلبه، وهو يدل على المحبة والتعظيم، فمن محبة الملائكة له وتعظيمه تضع أجنحتها له، لأنه طالب لما به حياة العالم ونجاته، ففيه شبه من الملائكة، وبينه وبينهم تناسب» [مفتاح دار السعادة: ١/ ٢٥٥].

وأورد ابن القيم حديث الرسول ﷺ الذي قال فيه: (إن الله وملائكته، وأهل السموات والأرض حتى النملة في جُحْرها، وحتى الحوت في بحره ليصلون على معلم الناس الخير) قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب [رواه الترمذي عن أبي أمامة الباهلي: ٢٦٨٥ وصححه الألباني في: صحيح الترمذي] [مفتاح دار السعادة: ١/ ٢٥٢].

وأورد ابن القيم في موضع آخر حديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه: (إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض يصلون على معلم الناس الخير) ثم قال: «لما كان تعليمه للناس الخير سبباً لنجاتهم وسعادتهم وزكاة نفوسهم، جازاه الله من جنس عمله بأن جعل عليه من صلاته وصلاة ملائكته وأهل الأرض ما يكون سبباً لنجاته وسعادته وفلاحه» .

وأيضاً؛ فإن معلم الناس الخير لما كان مُظهِراً لدين الرب وأحكامه ومُعرِّفاً لهم بأسمائه وصفاته، جعل الله من صلاته وصلاة أهل سمواته عليه ما يكون تنويهاً به، وتشريفاً له، وإظهاراً للثناء عليه بين أهل السماء والأرض. وأورد ابن القيم رحمه الله ما رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها

رضاً لطالب العلم، وإن العالِم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم؛ فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر» [رواه أبو داود: ٣٦٤١ وصححه الألباني في صحيح أبي داود، وروى مسلم والترمذي وأبو داود منه أوله إلى قوله: (طريقاً إلى الجنة) مسلم ٢٦٩٩، والترمذي: ٢٦٤٦، ٢٩٤٥، وأبو داود: ٣٦٤٢].

وقد رواه الوليد بن مسلم عن خالد بن يزيد، عن عثمان بن أيمن، عن أبي الدرداء، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من غدا لعلم يتعلمه فتح الله له به طريقاً إلى الجنة، وفرشت له الملائكة أكنافها، وصلّت عليه ملائكة السماء وحيتان البحر، وللعالِم من الفضل على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، والعلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم؛ فمن أخذ بالعلم أخذ بحظ وافر، وموت العالم مصيبة لا تجبر، وكلمة لا تسدّ، ونجم طمس، وموت قبيلة أيسر من موت عالِم» . وهذا حديث حسن [مفتاح دار السعادة: ١/٢٥٣-٢٥٥، وقال محقق الكتاب في التعليق على الحديث الأخير: لعل المصنف رحمه الله يريد حسن أصل الحديث، وهو الرواية السابقة عن أبي الدرداء، فإن كان كذلك، فنعم، وإن كان غير هذا فلا].

وتحدث ابن القيم رحمه الله تعالى عما ورد في «السنن» و «المسانيد» من حديث صفوان بن عسال، قال: قلت: يا رسول الله ﷺ إني جئت أطلب العلم، قال: «مرحباً بطالب العلم؛ إن طالب العلم لتحفُّ به الملائكة، وتظله بأجنحتها، فيركب بعضهم بعضاً حتى تبلغ السماء الدنيا من حبّهم لما يطلب...» . قال أبو عبدالله الحاكم: وإسناده صحيح.

وقال ابن عبدالبر: هو حديث صحيح حسن ثابت محفوظ مرفوع، ومثله لا يقال بالرأي [عزاه محقق كتاب مفتاح دار السعادة إلى أحمد والنسائي والطبراني وغيرهم بسند حسن].

ففي هذا الحديث حفُّ الملائكة له بأجنحتها إلى السماء، وفي الأول وضعها أجنحتها له؛ فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل، والحف بالأجنحة حفظ وحماية وصيانة.

فتضمن الحديثان تعظيم الملائكة له، وحبها إياه، وحياطته وحفظه؛ فلو لم يكن لطالب العلم إلا هذا الحظ الجزيل لكفى به شرفاً وفضلاً.

وقوله ﷺ : «إن العالِم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء» ؛ فإنه لما كان العالم سبباً في حصول العلم الذي به نجاة النفوس من أنواع المهلكات، وكان سعيه مقصوراً على هذا، وكانت نجاة العباد على يديه؛ جوزيَ من جنس عمله، وجُعل من في السموات والأرض ساعياً في نجاته من أسباب الهلكات باستغفارهم له.

وإذا كانت الملائكة تستغفر للمؤمنين، فكيف لا تستغفر لخاصتهم وخلاصتهم؟» [مفتاح دار السعادة: ١/ ٢٥٧].

الغصن الثاني
مباهاة الله ملائكته بطالبي العلم

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «إن الله تبارك وتعالى يباهي ملائكته بالقوم الذين يتذاكرون العلم، ويذكرون الله، ويحمدونه على ما منّ عليهم به منه» .

قال الترمذي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مرحوم بن عبدالعزيز العطار: حدثنا أبو نعامة، عن أبي عثمان، عن أبي سعيد، قال: خرج معاوية إلى المسجد فقال: «ما يُجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله عز وجل، قال: آلله ما

أجلسكم إلا ذلك؟! قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل حديثاً عنه مني؛ إن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، قال: ما يُجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده لما هدانا للإسلام ومنّ علينا بك، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟! قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم؛ إنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله تعالى يباهي بكم الملائكة» .

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو نعامة السعدي اسمه عمرو بن عيسى، وأبو عثمان النهدي اسمه عبدالرحمن بن ملّ [الترمذي: ٣٣٧٩، وصححه الألباني في صحيح الترمذي] [مفتاح دار السعادة: ١/ ٢٩٠].

المطلب التاسع
بناء الملائكة لبني آدم قصوراً في الجنة

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: إن بعض أهل العلم قال: «جاءت آثار بأن الملائكة تغرس في الجنة، وتبني للعبد ما دام يعمل، فإذا فَتَر فتر الملك عن العمل، قالوا: وقد روى ابن حِبّان في صحيحه والإمام أحمد في مسنده من حديث أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا قبض الله ولد العبد قال: يا ملك الموت قبضت ولد عبدي، قبضت قُرّة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم، قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسمُّوه بيت الحمد» .

وفي المسند من حديثه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى في يوم وليلة ثنتي عشرة ركعةً سوى الفريضة بنى الله له بيتاً في الجنة»

[رواه مسلم عن أم حبيبة بلفظ مقارب: ٧٢٨، ورواه الترمذي عن أم حبيبة بتفصيل في أعداد السنن الراتبة الاثنتي عشر ركعة: ٤١٥، وقال: حسن صحيح] [حاوي الأرواح: ص٧٧].

المطلب العاشر
لعن الملائكة مرتكبي الكبائر

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن الملائكة تلعن بعضاً من مرتكبي الكبائر، فمن ذلك: «لعنها من أتى امرأة في دبرها» [عزاه محقق كتاب الجواب الكافي إلى أحمد في مسنده ٢/ ٤٤٤، وأبي داود في النكاح، وحكم بصحة إسناده] وذكر: «أن الرسول ﷺ أخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح» [وعزاه المحقق إلى البخاري ومسلم وأحمد] .

وذكر أن الرسول ﷺ «لعن من انتسب إلى غير أبيه» [عزاه محقق الكتاب إلى مسلم في صحيحه وأصحاب السنن عن علي رضي الله عنه].

«وأخبر أن من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه» [مسلم في صحيحه: ٢١١٦، والترمذي في سننه عن أبي هريرة: ٢١٦٢، وقال فيه: هذا حدث حسن صحيح غريب من هذا الوجه] [الجواب الكافي: ص٩٦].

المطلب الحادي عشر
أسماء الملائكة وحكم التسمي بها

أخبرنا - تبارك وتعالى - عن بعض أسماء ملائكته في قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٩٨]. وعرض ابن القيم لحكم تسمي بني آدم بأسماء الملائكة، فقال: «يكره تسمية الآدميين بأسماء الملائكة: كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل» .

قال أشهب: سئل مالك عن التسمّي بجبريل، فكره ذلك، ولم يعجبه. وقال القاضي عياض: قد كره بعض العلماء التسمي بأسماء الملائكة، وهو قول الحارث بن مسكين.

قال: وكره مالك التسمِّي: بجبريل وياسين، وأباح ذلك غيره.

قال عبدالرزاق في «الجامع»: عن معمر، قال: قلت لحمّاد بن أبي سليمان: كيف تقول في رجل تسمَّى بجبريل وميكائيل؟ فقال: لا بأس به.

قال البخاري في «تاريخه» : قال أحمد بن الحارث: حدثنا أبو قتادة الشامي - ليس بالحراني، مات سنة أربع وستين ومئة - حدثنا عبدالله بن جراد، قال: صحبني رجل من مُزَيْنة، فأتى النبي ﷺ وأنا معه، فقال: يا رسول الله ! ولد لي مولود، فما خير الأسماء؟ قال: «إن خير الأسماء لكم: الحارث وهمّام، ونعم الاسم عبدالله وعبدالرحمن؛ وتسمّوا بأسماء الأنبياء، ولا تسموا بأسماء الملائكة» . قال: وباسمك؟ قال: «وباسمي، ولا تكنوا بكنيتي» .

وقال البيهقي: قال البخاري في هذه الرواية: في إسناده نظر [وهو ضعيف] [تحفة المودود: ص١١٢].

المطلب الثاني عشر
البيت المعمور كعبة أهل السماء

تحدث ابن القيم عن الكعبة التي يحج إليها ملائكة السماء، وهي في السماء السابعة، وفي ذلك يقول: «أقسم الله بسيد البيوت، وهو البيت المعمور، والمشهور أنه الضراح الذي في السماء الذي رفع للنبي ﷺ ليلة الإسراء، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه آخر ما

عليهم، وهو بحيال البيت المعمور في الأرض، وقيل هو البيت الحرام. ولا ريب أن كلاً منهما معمور، فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركّع والسجود، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت» [التبيان: ١٦٥].

المطلب الثالث عشر

معنى صلاة الملائكة على الرسول ﷺ وتبليغهم له عن أمته السلام

الغصن الأول

معنى صلاة الملائكة على رسولنا

أخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنه يصلي هو وملائكته على عبده ورسوله محمد ﷺ ، وأمرنا بالصلاة عليه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ونقل ابن القيم عن الضحاك، قال: «صلاته رحمته، وصلاة الملائكة الدعاء».

وقال المبرد: أصل الصلاة: الرُّحم، فهي من الله رحمة، ومن الملائكة رقّة، واستدعاء للرحمة من الله، وهذا القول هو المعروف عند كثير من المتأخرين» [جلاء الأفهام: ١٥٨].

ولم يرتض ابن القيم هذا القول وردّه من خمس عشر وجهاً، والذي حققه أن: «الصلاة من المصلي ثناء على من يصلى عليه، وتنويه به، وإشارة لمحاسنه ومناقبه وذكره» ونقل عن البخاري في صحيحه ما عزاه إلى «أبي العالية قال: صلاة الله على رسوله: ثناؤه عليه عند ملائكته» .

وقال أيضاً: «فرّق سبحانه بين صلاته وصلاة ملائكته، وجمعهما في فعل واحد، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب:٥٦]» .

ثم قال: «وهذه الصلاة لا يجوز أن تكون هي الرحمة، وإنما هي ثناؤه - سبحانه - وثناء ملائكته عليه» [جلاء الأفهام: ١٦٠].

وقال أيضاً في موضع آخر: «حقيقة الصلاة من العبد الثناء، وإرادة الإكرام، والتقريب، وإعلاء المنزلة، وهذا حاصل من صلاة العبد، لكن العبد يريد ذلك من الله عز وجل، والله يريد ذلك من نفسه أن يفعله برسوله ﷺ» [جلاء الأفهام: ١٦٣].

ونقل ابن القيم رحمه الله تعالى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه فسر قوله تعالى: (إن الله وملائكته يصلون على النبي) بـ «يباركون عليه» ثم قال: «هذا لا ينافي تفسيرها بالثناء، وإرادة التكريم والتعظيم، فإن التبريك، من الله يتضمن ذلك» [جلاء الأفهام: ١٦٨].

الغصن الثاني

الملك الذي أعطاه الله سمع الخلائق ليبلغ الرسول ﷺ عن أمته السلام

ذكر ابن القيم أكثر من حديث كلها يتحدث عن ملك أعطاه الله سمع الخلائق، أي: يسمع الخلق كلهم، يبلغ الرسول ﷺ عن أمته صلاتهم عليه، قال ابن القيم: «وأما حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه ، فقال: نعيم بن ضمضم: قال لي عمران بن حميري: ألا أحدثك عن خليلي عمار بن ياسر رضي الله عنه ؟ قلت: بلى. قال: قال رسول الله ﷺ : «إن لله تبارك وتعالى ملكاً أعطاه أسماع الخلائق، فهو قائم على قبري إذا مِتُّ، فليس أحد يصلي

عليّ صلاةً إلا قال: يا محمد صلّى عليك فلان بن فلان. قال: فيُصلّي الربّ تبارك وتعالى على ذلك الرجل بكل واحدة عشراً» .

[هذا الحديث والحديثان بعده أسانيدها ضعيفة، وقد حكم محققا جلاء الأفهام عليه بالضعف، ونقلا تضعيفه عن البخاري وغيره].

وقال ابن القيم: «قال الطبراني في (المعجم الكبير): «حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أبو كُريب، حدثنا قبيصة بن عقبة، عن نعيم بن ضمضم، عن ابن الحميري قال: قال لي عمار بن ياسر: يا ابن الحميري ألا أحدثك عن حبيبي نبي الله ﷺ ؟ قلت: بلى قال: قال رسول الله ﷺ : «يا عمّار إن لله ملكاً أعطاه أسماع الخلائق كلها، وهو قائم على قبري إذا مِتّ إلى يوم القيامة، فليس أحد من أمتي يصلي عليّ صلاة إلا سمّاه باسمه واسم أبيه، قال: يا محمد، صلى عليك فلان بن فلان كذا وكذا، فيُصلي الرب - عز وجل - على ذلك الرجل بكل واحدة عشراً» .

حدثنا أحمد بن داود المكي، حدثنا عبدالرحمن بن صالح الكوفي حدثنا نعيم بن ضمضم، عن خال له يقال له: عمران الحميري، قال: سمعت عمار بن ياسر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لله ملكاً أعطاه سماع العباد، فليس من أحد يصلي عليّ صلاة إلا أبلغنيها، وإني سألت ربي أن لا يصلي عليّ عبد صلاة إلا صلى الله عليه عشر أمثالها» رواه الروياني في «مسنده» عن أبي كريب، عن قبيصة، عن نُعيم بن ضمضم. [جلاء الأفهام: ١٠٧].

المبحث الحادي عشر

المفاضلة بين الملائكة وآدم وبنيه

المطلب الأول

فضل آدم ومكانته

أراد ربنا - تبارك وتعالى - أن يخلق خلقاً «ويظهر شرفه وفضله على سائر المخلوقات، فقدمها عليه في الخلق ولهذا قالت الملائكة: ليخلق ربنا ما شاء، فلن يخلق خلقاً أكرم عليه منا، فلما خلق آدم وأمرهم بالسجود له ظهر فضله وشرفه عليهم بالعلم والمعرفة، فلما وقع في الذنب ظنت الملائكة أن ذلك الفضل قد نسخ، ولم تطلع على عبودية التوبة الكامنة، فلما تاب إلى ربه وأتى بتلك العبودية علمت الملائكة أن لله في خلقه سراً لا يعلمه سواه» [الفوائد: ٧٥].

وفضل الله آدم عليه السلام على الملائكة - كما يقول ابن القيم - من وجوه كثيرة.

«أحدها: أنه سبحانه ردّ على الملائكة لما سألوا: كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه؟ فقال: ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠]، فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمونه، وهو العليم الحكيم، فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه، ورسله، وأنبيائه، وصالحي عباده، والشهداء، والصدّيقين، والعلماء، وطبقات أهل العلم والإيمان من هو خير من الملائكة، وظهر من إبليس من هو شر العالمين، فأخرج سبحانه

هذا وهذا، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا، ولا بهذا، ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحِكَم الباهرة.

الثاني: أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ميّزه عليهم بالعلم، فعلّمه الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال: ﴿ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:٣١]، جاء في التفسير أنهم قالوا: لن يخلق ربنا خلقاً هو أكرم عليه منا، فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، فلما امتحنهم بعلم ما علّمه لهذا الخليفة أقروا بالعجز، وجَهْل ما لم يعلموه، فقالوا: ﴿ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة:٣٢]، فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصّه به من العلم، فقال: ﴿ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ ﴾ [البقرة:٣٣] أقرّوا له بالفضل.

الثالث: أنه سبحانه لما أن عرفهم فضل آدم بالعلم، وعجزهم عن معرفة ما علّمه، قال لهم: ﴿ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ [البقرة:٣٣]، فعرّفهم سبحانه بالعلم، وأنه أحاط علماً بظاهرهم وباطنهم، وبغيب السموات والأرض، فتعرّف إليهم بصفة العلم، وعرفهم فضل نبيّه وكليمه بالعلم، وعجزهم عما آتاه آدم من العلم، وكفى بهذا شرفاً للعلم.

الرابع: أنه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات، وأراد سبحانه أن يُظهر لملائكته فضله وشرفه، فأظهر لهم أحسن ما فيه وهو علمه، فدلّ على أن العلم أشرف ما في الإنسان، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم.

ونظير ذلك ما فعله بنبيِّه يوسف عليه السلام لما أراد إظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم، أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير، فحينئذ قدّمه، ومكّنه، وسلّم إليه خزائن الأرض، وكان قبل ذلك قد حبسه على ما رآه من حسن وجهه، وجمال صورته، ولما ظهر له حسن صورة علمه، وجمال معرفته، أطلقه من الحبس، ومكّنه في الأرض، فدلّ على أن صورة العلم عند بني آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية، ولو كانت أجمل صورة» [مفتاح دار السعادة: ١/ ٢٢٨-٢٣٠].

المطلب الثاني

المفاضلة بين الملائكة وصالحي بني آدم

نقل ابن القيم رحمه الله تعالى عن شيخه العلاّمة ابن تيمية تحقيق القول في ذلك، فقال: «إنه سئل عن صالحي بني آدم والملائكة أيهما أفضل؟ فأجاب بأن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، والملائكة أفضل باعتبار البداية، فإن الملائكة الآن في الرّفيق الأعلى منزهين عما يلابسه بنو آدم مستغرقون في عبادة الرب، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر، وأما يوم القيامة بعد دخول الجنة فيصير حال صالحي البشر أكمل من حال الملائكة.

وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل، وتتفق أدلة الفريقين، ويصالح كل منهم على حقه، فعلى المتكلم في هذا الباب أن يعرف أسباب الفضل أولاً، ثم درجاتها، ونسبة بعضها إلى بعض، والموازنة بينها ثانياً، ثم نسبتها إلى من قامت به ثالثاً كثرة وقوة، ثم اعتبار تفاوتها بتفاوت محلها رابعاً، فرُبَّ صفة هي كمال لشخص وليست كمالاً لغيره، بل كمال غيره بسواها، فكمال

خالد بن الوليد بشجاعته وحروبه، وكمال ابن عباس بفقه وعلمه، وكمال أبي ذر بزهده وتجرّده عن الدنيا، فهذه أربع مقامات يضطر إليها المتكلم في درجات التفضيل، وتفضيل الأنواع على الأنواع أسهل من تفضيل الأشخاص على الأشخاص، وأبعد من الهوى والغرض» [بدائع الفوائد: ٣/ ١٤٠].

وقال ابن القيم في موضع آخر: «وأما المقدمة الثانية وهي كون الملائكة خيراً وأشرف من الإنس فهي المسألة المشهورة، وهي تفضيل الملائكة أو البشر، والجمهور على تفضيل البشر، والذين فضلوا الملائكة هم المعتزلة والفلاسفة وطائفة ممن عداهم، بل الذي ينبغي أن يقال في التقديم هنا أنه تقديم بالزمان، لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر:٢٦] [بدائع الفوائد: ٢/ ٦٣].

وقد تكلم ابن القيم رحمه الله في مواضع من كتبه على فضل بني آدم كلاماً مطلقاً، وينبغي أن يقيد كلامه كله بما نقله في ذلك عن شيخه، ومن ذلك قوله: «قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٠]، فسبحان من ألبس خِلَعَ الكرامة كلها لبني آدم؛ من العقل والعلم والبيان والنطق، والشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة والقدّ المعتدل، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر، واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد، فكم بين حاله وهو نطفة داخل إلى الرحم مستودع هناك وبين حاله والمَلَك يدخل عليه في جنات عدن! ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون:١٤].

فالدنيا قرية، والمؤمن رئيسها، والكل مشغول به ساعٍ في مصالحه، والكل قد أُقيم في خدمته وحوائجه؛ فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن

ومن حوله يستغفرون له، والملائكة الموكّلون به يحفظونه، والموكّلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه، والأفلاك مسخرة منقادة دائرة بما فيه مصالحه، والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمنته وأوقاته وإصلاح رواتب أقواته، والعالَم الجوي مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره وما أودع فيه، والعالَم السفلي كله مسخر له مخلوق لمصالحه؛ أرضُه وجبالُه، وبحاره وأنهار، وأشجاره وثماره، ونباته وحيوانه، وكل ما فيه، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:١٢-١٣].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۞ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم:٣٢-٣٤] » [مفتاح دار السعادة: ٢/ ٢٠١].

المبحث الثاني عشر

ضلال طوائف من بني آدم تجاه الملائكة

المطلب الأول

موقف الفلاسفة من الملائكة

الفلاسفة الملاحدة لا يعرفون الملائكة، وإذا ذكروهم فعلى غير الوصف الشرعي، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «وأما الإيمان بالملائكة فهم لا يعرفون الملائكة، ولا يؤمنون بهم، وإنما الملائكة عندهم ما يتصوره النبي بزعمهم في نفسه من أشكال نورانية، هي العقول عندهم، وهي مجرّدات ليست داخل العالم، ولا خارجه، ولا فوق السموات، ولا تحتها، ولا هي أشخاص تتحرك، ولا تصعد، ولا تنزل، ولا تدبر شيئاً، ولا تتكلم، ولا تكتب أعمال العبد، ولا لها إحساس ولا حركة ألبتة، ولا تنتقل من مكان إلى مكان، ولا تصف عند ربها، ولا تصلي، ولا لها تصرّف في أمر العالم ألبتة، فلا تقبض نفس العبد، ولا تكتب رزقه وأجله وعمله، ولا عن اليمين وعن الشمال قعيد، كل هذا لا حقيقة له عندهم ألبتة.

وربما تقرب بعضهم إلى الإسلام، فقال: الملائكة هي القوى الخيِّرة الفاضلة التي في العبد، والشياطين هي القُوى الشريرة الرديئة، هذا إذا تقربوا إلى الإسلام وإلى الرسل» [إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٦١].

المطلب الثاني

عبادة المشركين الملائكة

وبعض المشركين يعبدون الملائكة بزعمهم، وهم في الحقيقة يعبدون الشياطين، وفي ذلك يقول ابن القيم: «زيّن الشيطان لقوم عبادة الملائكة،

فعبدوهم بزعمهم، ولم تكن عبادتهم في الحقيقة لهم، ولكن كانت للشياطين، فعبدوا أقبح خلق الله وأحقهم باللعن والذم قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝١٧ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٨ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٧-١٩] .

وهذه الآيات تحتاج إلى تفسير وبيان.

فقوله سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ عام في كل عابد ومن عبده من دون الله.

وأما قوله: ﴿ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ فقال مجاهد، فيما رواه وَرْقاء عن ابن أبي نجيح - عنه قال: «هذا خطاب لعيسى وعُزير، والملائكة» وروى عنه ابن جُريج نحوه.

وأما عكرمة والضحاك والكلبي، فقالوا: هو عام في الأوثان وعبدتها.

ثم يأذن سبحانه لها في الكلام، فيقول: ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ قال مقاتل: يقول سبحانه: (أأنتم أمرتموهم بعبادتكم، أم هم ضلوا السبيل؟

أي: أم هم أخطؤوا الطريق؟) فأجاب المعبودون بما حكى الله عنهم من قولهم ﴿ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الفرقان:١٨] .

وهذا الجواب إنما يحسن من الملائكة والمسيح وعُزير، ومن عبدهم المشركون من أولياء الله.

ولهذا قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: قالت الملائكة وعيسى الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله (تنزيهاً لك يا ربنا وتبرئة مما اضاف إليك هؤلاء المشركون) ﴿ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الفرقان:١٨] نواليهم، بل أنت ولينا من دونهم.

وقال ابن عباس، ومقاتل «نزّهوا الله وعظموه أن يكون معه إله» [إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٣٨].

المطلب الثالث

زعم المشركين أن الملائكة بنات الله

أورد ابن القيم رحمه الله تعالى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات:١٥٨].

ونقل عن مجاهد قال: «قالت كفار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبو بكر: فمن أمهاتهم؟ قالوا: سروات الجن. وقال الكلبي: قالوا: تزوج من الجن فخرج من بينهما الملائكة. وقال قتادة: قالوا صاهر الجن.

وقال الحسن قال: أشركوا الشياطين في عبادة الله فهو النسب الذي جعلوه، والصحيح قول مجاهد، فإنهم لما قالوا: الملائكة بنات الله، وهم من

الجن عقدوا بينه وبين الجن نسباً بهذا الإيلاد، وجعلوا هذا النسب متولّداً بينه وبين الجن. وأما قوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٨] فالضمير يرجع إلى الجنة، أي قد علمت الجنة أنهم محضرون الحساب، قاله مجاهد: أي لو كان بينه وبينهم نسب لم يحضروا للحساب، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة:١٨] فجعل سبحانه عقوبتهم بذنوبهم، وإحضارهم للعذاب مُبطلاً لدعواهم الكاذبة، وهذا التقدير في الآية أبلغ في إبطال قولهم من التقدير الأول، فتأمّله، والمقصود ذكر أسماء الجنة [حادي الأرواح: ١٣٩-١٤٠].

المطلب الرابع
المستهزئون بالملائكة

بعض المنتسبين إلى الإسلام يكذبون بالملائكة، ويتعسفون في تأويل العدد الهائل من نصوص القرآن ونصوص الأحاديث التي حفل بها الكتاب والسنّة، والتي لا تحتمل ردّاً ولا تأويلاً، وقد ذكر لنا ابن القيم واقعتين استهزأ فيها بعض المكذبين بالملائكة بالنصوص الواردة فيهما، فعذب المستهزئون بذلك عذاباً شديداً، وفي ذلك يقول ابن القيم: «قال: أحمدُ بن مروان المالكي في كتاب «المجالسة»[1] له: حدثنا زكريا بن عبدالرحمن البصريّ، قال: سمعت أحمد بن شعيب يقول: كنا عند بعض المحدّثين بالبصرة، فحدّثنا بحديث النبي ﷺ : (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب

(١) هو أحمد بن مروان الدنيوري المتوفى بعد سنة (٣٣٢هـ).

العلم...)، وفي المجلس معنا رجل من المعتزلة، فجعل يستهزئ بالحديث، فقال: والله لأطرقن غداً نعلي بمسامير، فأطأ بها أجنحة الملائكة، ففعل، ومشى في النعلين؛ فجفّت رجلاه جميعاً، ووقعت في رجليه الآكِلَة.

وقال الطبراني: سمعت أبا يحيىٰ زكريا بن يحيى الساجي قال: كنا نمشي في بعض أزقة البصرة إلى باب بعض المحدِّثين، فأسرعنا المشي، وكان معنا رجل ماجن متّهم في دينه، فقال: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها، كالمستهزئ، فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط» [مفتاح دار السعادة: ١/ ٢٥٦].

وهذا الاستهزاء شبيه باستهزاء كفار قريش بالملائكة، فقد أخبرنا ربنا - كما يقول ابن القيم - «أنّ عِدّة الملائكة الموكّلين بالنار تسعة عشر فتنةً للكفار، حيث قال عدو الله أبو جهل: أيُخوِّفكم محمد بتسعة عشر، وأنتم الدُّهْمُ، أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟ فقال أبو الأسد: يا معشر قريش، إذا كان يوم القيامة فأنا أمشي بين أيديكم على الصراط، فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر في النار، ونمضي فندخل الجنة.

فكان ذكر هذا العدد فتنةً لهم في الدنيا، وفتنةً لهم يوم القيامة» [إغاثة اللهفان: ١٦٣].

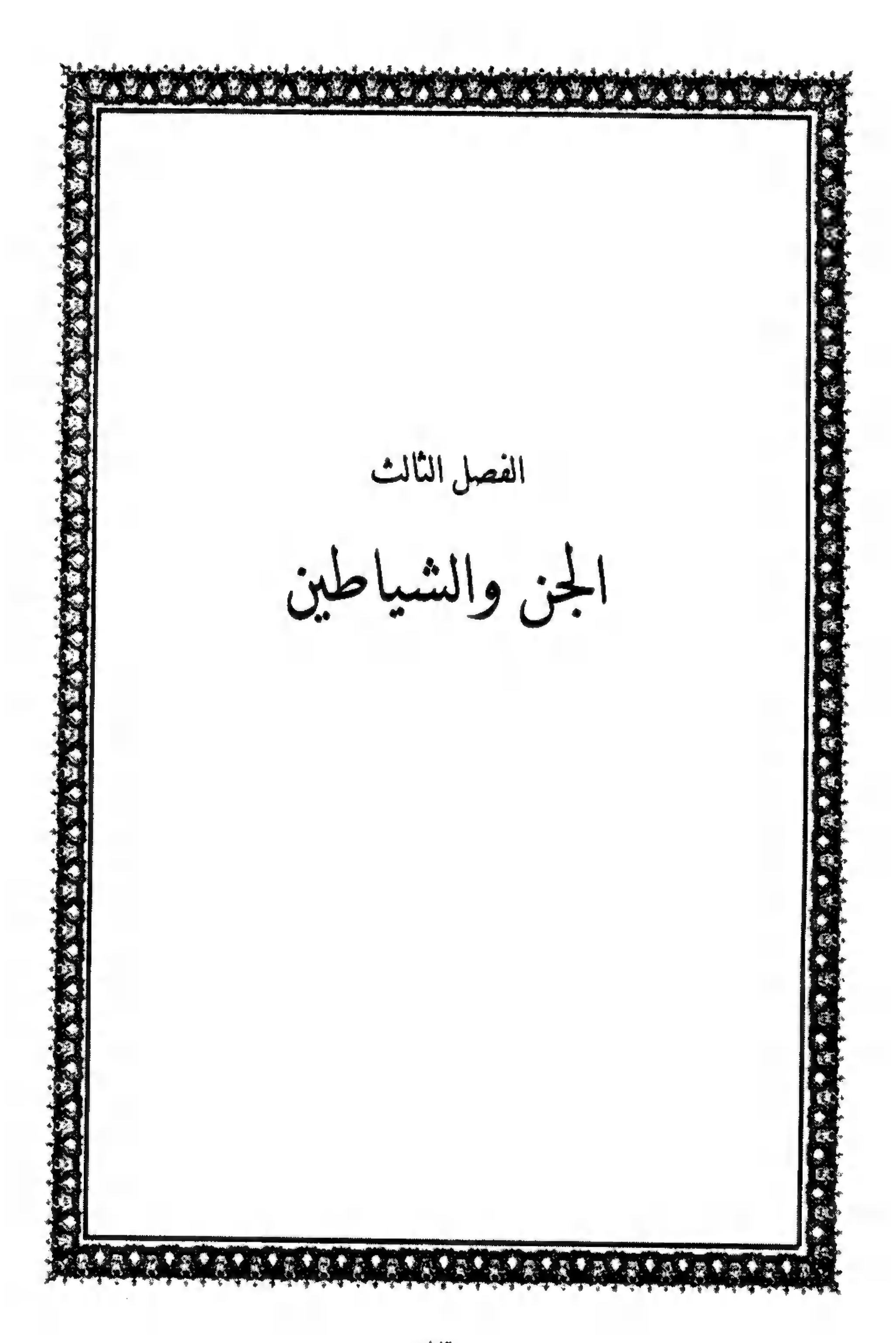
المطلب الخامس
عداوة اليهود لبعض الملائكة

وتحدث ابن القيم عن عداوة اليهود لجبريل عليه السلام، فقال: «وقالت اليهود للنبي ﷺ «من صاحبك الذي يأتيك من الملائكة؟ فإنه ليس من نبيٍ

إلا يأتيه ملك بالخبر؟ قال: هو جبريل. قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال، ذاك عدونا. لو قلت: ميكائيل الذي ينزل بالنبات والقطر والرحمة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٩٧-٩٨]

[إغاثة اللهفان: ٢/١٢٩] [والحديث عزاه محقق الكتاب إلى أحمد والترمذي والنسائي. وقال الترمذي: حسن غريب].

وفي صحيح البخاري (٤٤٨٠) عن أنس ﷺ قال: سَمِعَ عبدالله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة وهو في أرض يخترف، فأتى النبي ﷺ فقال: إني سَائِلُكَ عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، فما أوَّلُ أشراطِ الساعة؟ وما أوَّلُ طعامِ أهلِ الجنة؟ وما يَنزِعُ الولدُ إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهنَّ جبريل آنفاً» قال: جبريل؟ قال: «نعم» قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:٩٧] «أما أول أشراط الساعة فنار تحشرُ الناسَ من المشرق إلى المغرب، وأما أوَّلُ طعام يأكله أهلُ الجنة فزيادةُ كبدِ الحوت، وإذا سَبَقَ ماءُ الرجلِ ماءَ المرأةِ نزعَ الولدُ، وإذا سبقَ ماءُ المرأةِ ماءَ الرجل نَزَعَتْ، قال: أشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وأشهدُ أنك رسول الله. إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءت اليهود، فقال: أي رجل عبدالله فيكم؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، قال: أفرأيتم إن أسلم عبدالله؟ فقالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبدالله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه، فقال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله» .



الفصل الثالث

الجن والشياطين

المبحث الأول

التعريف بالجن

المطلب الأول

الجن كانوا ولا يزالون طرائق قدداً

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى: «أن المسلمين اتفقوا على أن من الجن المؤمن والكافر والبر والفاجر، قال تعالى إخباراً عنهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ [الجن:١١]. قال مجاهد: يعنون مسلمين وكافرين، وقال الحسن والسدي: أمثالكم، فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة، وقال سعيد بن جبير: ألواناً شتى، وقال ابن كيسان: شيعاً وفرقاً، ومعنى الكلام: أصنافاً مختلفة ومذاهب متفرقة، ثم قيل في إعراب الآية: ﴿ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ قوم دون ذلك، فحذف الموصوف وأقام صفته مقامه.

وقوله: ﴿ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ بيان لقولهم: ﴿ مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾، أي: كنا ذوي طرائق - وهي المذاهب - واحدها طريقة وهي المذهب، والقدد جمع قِدَّةٍ، كقطعة وقطع وزناً ومعنى، وهي من القد وهو القطع.

وقال تعالى إخباراً عنهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ [الجن:١٤].

فالمسلمون الذين آمنوا بالله ورسوله منهم، والقاسطون الجائرون العادلون عن الحق، قال ابن عباس: هم الذين جعلوا لله أنداداً، يقال: أقسط الرجل إذا عدل، فهو مقسط، ومنه: ﴿ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات:٩]، وقسط إذا جار فهو قاسط: ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن:١٥].

وذكر ابن القيم رحمه الله تعالى: «أن هذه الآيات تضمنت انقسامهم إلى ثلاث طبقات: صالحين، ودون الصالحين، وكفار، وهذه الطبقات بإزاء طبقات بني آدم فإنها ثلاثة: أبرار، ومقتصدون، وكفار، فالصالحون بإزاء الأبرار، ومن دونهم بإزاء المقتصدين، والقاسطون بإزار الكفار» [تقريب طريق الهجرتين: ٥٧٢-٥٧٣].

المطلب الثاني
عمل الشيطان وقرآنه وكتابه وطعامه

نقل ابن القيم رحمه الله تعالى عن قتادة قوله: «لما أهبط إبليس قال: يا رب لعنتني، فما عملي؟ قال: السحر. قال: فما قرآني؟ قال: الشِّعر. قال: فما كتابي؟ قال: الوَشْم، قال: فما طعامي؟ قال: كلُّ ميتة، وما لم يُذكر اسم الله عليه، قال: فما شرابي؟ قال: كل مُسكِر، قال: فأين مسكني؟ قال: الأسواق. قال: فما صوتي؟ قال: المزامير، قال: فما مصايدي؟ قال: النساء».

هذا، والمعروف في هذا وقفه، وقد رواه الطبراني في معجمه من حديث أبي أمامة مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

وقال ابن أبي الدنيا، في كتاب مكايد الشيطان وحيله: حدثنا أبو بكر التيمي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا يحيى بن أيوب قال حدثنا ابن زَحْر عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ قال: «إن إبليس لما أنزل إلى الأرض قال: يا رب، أنزلتني إلى الأرض، وجعلتني رَجيماً، فاجعل لي بيتاً، قال: الحَمَّام، قال: فاجعل لي مجلساً، قال: الأسواق ومجامع الطرقات، قال: فاجعل لي طعاماً، قال: كل ما لم يُذكر اسم الله عليه، قال: فاجعل لي شراباً، قال: كل مسكر، قال: فاجعل لي مؤذِّناً، قال: المزمار، قال: فاجعل لي قرآناً، قال: الشعر، قال: فاجعل لي

كتاباً، قال: الوشم. قال: فاجعل لي حديثاً. قال: الكذب. قال: فاجعل لي رسلاً، قال: الكهنة: قال: فاجعل لي مصايد. قال: النساء» .

وشواهد هذا الأثر كثيرة فكل جملة منه لها شواهد من السنّة، أو من القرآن.

السحر عمل الشيطان :

أما كون السحر من عمل الشيطان شاهده قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ [البقرة:١٠٢].

الشعر قرآنه :

وأما كون الشعر قرآنه فشاهده: ما رواه أبو داود في سننه من حديث جُبير بن مُطْعِم «أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي. فقال: الله أكبر كبيراً، الله أكبر كبيراً، الله أكبر كبيراً، الحمد لله كثيراً، الحمد لله كثيراً، الحمد لله كثيراً، وسبحان الله بُكرةً وأصيلاً - ثلاثاً - أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: من نفخه، ونفْثِه، وهمْزه، قال: نفْثه الشعر، ونفخه: الكِبْر، وهمزه: المُوْتَة» [عزاه محقق الكتاب أحمد وأبي داود والترمذي والنسائي].

ولما علّم الله رسوله القرآن، وهو كلامه، صانه عن تعليم قرآن الشيطان. وأخبر أنه لا ينبغي له، فقال: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ [يس:٦٩].

وكون الوشم كتاب الشيطان :

وأما كون الوشم كتابه، فإنه من عمله وتزيينه، ولهذا لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة [البخاري: ٥٩٣٧، ٥٩٤٠ ومسلم: ٢١٢٤، ٢١٢٥] فلعن الكاتبة والمكتوب عليها.

طعام الشيطان :

وأما كون الميتة ومتروك التسمية طعامه، فإن الشيطان يستحلّ الطعام، إذا لم يُذكر عليه اسم الله، ويشارك آكله، والميتة لا يُذكر عليها اسم الله تعالى، فهي وكلُّ طعامٍ لا يُذكر عليه اسم الله عز وجل من طعامه، ولهذا لما سأل الجن الذين آمنوا برسول الله ﷺ الزاد، قال: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه» [مسلم: ٤٥٠] فلم يُبح لهم طعام الشياطين، وهو متروك التسمية.

المسكر شرابه :

وأما كون المسكر شرابه، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ [المائدة:٩٠] فهو يشرب من الشراب الذي عمله أولياؤه بأمره، وشاركهم في عمله. فيشاركهم في عمله وشربه، وإثمه، وعقوبته.

الأسواق مجلسه :

وأما كون الأسواق مجلسه ففي الحديث الآخر «أنه يركُز رايته بالسوق» ولهذا يحضره اللغو واللغط والصخب والخيانة والغش. وكثير من عمله، وفي صفة النبي ﷺ في الكتب المتقدمة «أنه ليس سَخَّاباً بالأسواق» [البخاري: ٤٨٣٨ عن عمرو بن العاص].

بيت الشيطان :

وأما كون الحمَّام بيته. فشاهده كونه غير محلٍّ للصلاة، وفي حديث أبي سعيد «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمَّام» [أبو داود: ٤٩٣. وحكم عليه

الألباني بالصحة في صحيح أبي داود] ولأنه محل كشف العورات. وهو بيت مؤسَّس على النار، وهي مادة الشيطان التي خُلق منها.

المزمار مؤذنه :

وأما كون المزمار مؤذنه، ففي غاية المناسبة، فإن الغناء قرآنه، الرقص والتصفيق - اللذين هما المكاء والتصدية - صلاته، فلابد لهذه الصلاة من مؤذن وإمام ومأموم، فالمؤذن المزمار، والإمام المغنِّي، والمأموم الحاضرون.

الكذب حديث الشيطان :

وأما كون الكذب حديثه، فهو الكاذب، الآمر بالكذب، المزيِّن له، فكل كذب يقع في العالم فهو من تعليمه وحديثه.

الكهنة رسل الشيطان :

وأما كون الكهنة رسله، فلأن المشركين يهرعون إليهم، ويفزعون إليهم في أمورهم العظام، ويصدقونهم، ويتحاكمون إليهم، ويرضون بحكمهم، كما يفعل أتباع الرسل بالرسل، فإنهم يعتقدون أنهم يعلمون الغيب، ويخبرون عن المغيبات التي لا يعرفها غيرهم، فهم عند المشركين بهم بمنزلة الرسل، فالكهنة رسل الشيطان حقيقة أرسلهم إلى حِزْبه من المشركين وشبَّههم بالرسل الصادقين، حتى استجاب لهم حزبه، ومثَّل رسل الله بهم ليفِّر عنهم، ويجعل رسله هم الصادقين العالمين بالغيب، ولما كان بين النوعين أعظم التضاد قال رسول الله ﷺ «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد» [قال محقق الكتاب: رواه البزار عن عمران بن حصين بإسناد جيد ورواه الطبراني عن ابن عباس بإسناد حسن].

فإن الناس قسمان: أتباع الكهنة، وأتباع رسل الله، فلا يجتمع في العبد أن يكون من هؤلاء وهؤلاء، بل يَبْعُد عن رسول الله ﷺ بقدر قُرْبه من الكاهن، ويُكذِّب الرسول بقدر تصديقه للكاهن.

الغناء قرآن الشيطان :

والمقصود: أن الغناء المحرَّم قرآن الشيطان.

ولما أراد عدو الله أن يجمع عليه نفوس المبطلين قَرَنه بما يُزيِّنه من الألحان المطربِة، وآلات الملاهي والمعازف، وأن يكون من امرأةٍ جميلة، أو صبي جميل، ليكون ذلك أدْعى إلى قبول النفوس لقرآنه، وتعوُّضِها به عن القرآن المجيد.

وأما تسميته بالصوت الأحمق، والصوت الفاجر، فهي تسمية الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى.

فروى الترمذي من حديث ابن أبي ليلى عن عطاء عن جابر ﷺ قال: «خرج رسول الله ﷺ مع عبدالرحمن بن عوف إلى النخل، فإذا ابنه إبراهيم يجود بنفسه، فوضعه في حِجْره، ففاضت عيناه، فقال عبدالرحمن: أتبكي، وأنت تنهى الناس؟ قال: إني لم أنه عن البكاء، وإنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نغمةٍ: لهو ولعب ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبة: خَمْش وجوه، وشقّ جيوب، ورنّة. وهذا هو رحمة، ومن لا يرحم لا يُرحم. لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق أوّلنا، لحزنّا عليك حُزْناً هو أشد من هذا، وإنا بك لمحزونون، تبكي العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يُسخط الرب» قال الترمذي: هذا حديث حسن.

فانظر إلى هذا النهي المؤكد، بتسميته صوت الغناء صوتاً أحمق، ولم يقتصر على ذلك، حتى وصفه بالفجور، ولم يقتصر على ذلك حتى سماه من مزامير الشيطان، وقد أقر النبي ﷺ أبا بكر الصديق على تسمية الغناء مزمور الشيطان في الحديث الصحيح، كما سيأتي، فإن لم يُستفد التحريم من هذا لم نستفده من نهي أبداً.

فكيف يستجيز العارف إباحة ما نهى عنه رسول الله ﷺ ، وسمّاه صوتاً أحمق فاجراً، ومزمور الشيطان، وجعله والنياحة التي لعن فاعلها أخوين؟ وأخرج النهي عنهما مخرجاً واحداً، ووصفهما بالحمق والفجور وصفاً واحداً.

وقال الحسن «صوتان ملعونان: مزمار عند نغمة، ورنّة عند مصيبة» .

وقال أبو بكر الهذلي: «قلت للحسن: أكان نساء المهاجرات يصنعن ما يصنع النساء اليوم؟ قال: لا، ولكن ههنا خَمْشُ وجوه، وشقُّ جيوب، ونتف أشعار، ولَطْمُ خدود، ومزامير شيطان، صوتان قبيحان فاحشان: عند نغمة إن حدثت، وعند مصيبة إن نزلت، ذكر الله المؤمنين فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج:٢٤-٢٥] وجعلتم أنتم في أموالكم حقاً معلوماً للمغنية عند النغمة، والنائحة عند المصيبة» .

صوت الشيطان :

وأما تسميته صوت الشيطان، فقد قال تعالى للشيطان وحزبه: ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء:٦٣-٦٤].

قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي، أخبرنا أبو صالح - كاتب الليث - حدثنا معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ قال: «كل داعٍ إلى معصية».

ومن المعلوم أن الغناء من أعظم الدواعي إلى المعصية، ولهذا فُسِّر صوت الشيطان به.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، أخبرنا يحيى بن المغيرة، أخبرنا جرير عن ليث عن مجاهد ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ قال: «استزِلَّ منهم من استطعت» قال: «وصوته الغناء، والباطل» .

وبهذا الإسناد إلى جرير عن منصور عن مجاهد قال: «صوته هو المزامير» ثم روى بإسناده عن الحسن البصري قال «صوته هو الدف» .

وهذه الإضافة إضافة تخصيص، كما أن إضافة الخيل والرَّجْل إليه كذلك، فكل متكلم بغير طاعة الله، ومُصوِّتٍ بيراعٍ أو مزمار، أو دُفٍّ حرام، أو طبل. فذلك صوت الشيطان، وكل ساعٍ في معصية الله على قدميه فهو من رجله، وكل راكب في معصية الله فهو من خيّالته. كذلك قال السلف، كما ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «رَجْلُه كل رِجْلٍ مشت في معصية الله» .

وقال مجاهد: «كل رَجُل يقاتل في غير طاعة الله فهو من رَجْله» .

وقال قتادة: «إن له خيلاً ورَجْلاً من الجن والإنس» .

مزمور الشيطان :

وأما تسميته مزمور الشيطان، ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «دخل عليَّ النبي ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بُعاث،

فاضطجع على الفِراش، وحوّل وجهه، ودخل أبو بكر ﷺ ، فانتهرني، وقال: مزمار الشيطان عند النبي ﷺ ؟ فأقبل عليه رسول الله ﷺ ، فقال: دَعْهُما، فلم غفل غمزتهما، فخرجتا» [البخاري: ٢٩٠٦، مسلم: ٨٩٢].

فلم ينكر رسول الله ﷺ على أبي بكر تسمية الغناء مزمار الشيطان وأقرهما، لأنهما جاريتان غير مكلفتين تغنيان بغناء الأعراب، الذي قيل في يوم حرب بُعاث من الشجاعة، والحرب. وكان اليوم يوم عيد، فتوسّع حزب الشيطان في ذلك إلى صوت امرأة جميلة أجنبية، أو صبي أمْرَد صوته فتنة، وصورته فتنة، يغني بما يدعو إلى الزنى والفجور، وشرب الخمور، مع آلات اللهو التي حرمها رسول الله ﷺ في عدة أحاديث، كما سيأتي، مع التصفيق والرقص، وتلك الهيئة المنكرة التي لا يستحلها أحد من أهل الأديان، فضلاً عن أهل العلم والإيمان، ويحتجون بغناء جُويريتين غير مكلفتين بنشيد الأعراب، ونحوه في الشجاعة ونحوها، في يوم عيد، بغير شبَّابة ولا دُفٌّ، ولا رقص ولا تصفيق، ويَدعون المحكم الصريح، لهذا المتشابه، وهذا شأن كل مبطل.

نعم، نحن لا نحرم ولا نكره مثل ما كان في بيت رسول الله ﷺ على ذلك الوجه، وإنما نحرم نحن وسائر أهل العلم والإيمان السماع المخالف لذلك، وبالله التوفيق.

تحريم الموسيقا وآلات اللهو :

في بيان تحريم رسول الله ﷺ الصريح لآلات اللهو والمعازف، وسياق الأحاديث في ذلك.

عن عبدالرحمن بن غَنْم قال: حدثني أبو عامر، أو أبو مالك الأشعري رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ليكونن من أمتي قوم يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف» هذا حديث صحيح، أخرجه البخاري في صحيحه (٥٥٩٠) محتجاً به، وعلقه تعليقاً مجزوماً به، فقال: «باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه، وقال هشام بن عمار: حدثنا صدقة بن خالد، حدثنا عبدالرحمن بن يزيد بن جابر، حدثنا عطية بن قيس الكلابي، حدثنا عبدالرحمن بن غنم الأشعري، قال: حدثني أبو عامر - أو أبو مالك - الأشعري - والله ما كذبني - أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف، ولينزلن أقوام إلى جنب علم، يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم لحاجة، فيقولوا: ارجع إلينا غداً، فيبيتهم الله تعالى، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة» .

ولم يصنع من قدح في صحة هذا الحديث شيئاً، كابن حزم، نُصْرَةً لمذهبه الباطل في إباحة الملاهي، وزعم أنه منقطع، لأن البخاري لم يصل سنده به.

وجواب هذا الوهم من وجوه:

أحدها: أن البخاري قد لقي هشام بن عمار وسمع منه، فإذا قال «قال هشام» فهو بمنزلة قوله «عن هشام» .

الثاني: أنه لو لم يسمع منه فهو لم يستجز الجزم به عنه إلا وقد صح عنه أنه حدث به، وهذا كثيراً ما يكون لكثرة من رواه عنه عن ذلك الشيخ وشهرته، فالبخاري أبعدُ خلق الله من التدليس.

الثالث: أنه أدخله في كتابه المسمى بالصحيح محتجاً به، فلولا صحته عنده لما فعل ذلك.

الرابع: أنه علّقه بصيغة الجزم، دون صيغة التمريض، فإنه إذا توقف في الحديث أو لم يكن على شرطه يقول: «ويُروى عن رسول الله ﷺ ، ويُذكر عنه» ، ونحو ذلك: فإذا قال: «قال رسول الله ﷺ » فقد جزم وقطع بإضافته إليه.

الخامس: أنا لو أضربنا عن هذا كله صَفْحاً فالحديث صحيح متصل عند غيره.

قال أبو داود في كتاب اللّباس: حدثنا عبدالوهاب بن نَجْدَة حدثنا بِشْر بن بكر عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر حدثنا عطية بن قَيْس قال: سمعت عبدالرحمن بن غنم الأشعري، قال: حدثنا أبو عامر أو أبو مالك، فذكره مختصراً. [أبو داود مختصراً: ٤٠٣٩ وليس فيه ذكر المعازف] ورواه أبو بكر الإسماعيلي في كتابه الصحيح مسنداً، فقال: أبو عامر. ولم يشكّ.

ووجه الدلالة منه: أن المعازف هي آلات اللهو كلها، لا خلاف بين أهل اللغة في ذلك، ولو كانت حلالاً لما ذمَّهم على استحلالها، ولما قَرَن استحلالها باستحلال الخمر والخز، فإن كان بالحاء والراء المهملتين، فهو استحلال الفروج الحرام، وإن كان بالخاء والزاي المعجمتين فهو نوع من الحرير، غير الذي صحّ عن الصحابة رضي الله عنهم لبسه، إذ الخَزُّ نوعان، أحدهما: من حرير. والثاني: من صوف. وقد رُوي هذا الحديث بالوجهين.

وقال ابن ماجه في سننه: حدثنا عبدالله بن سعيد عن معاوية بن صالح عن حاتم بن حُريث عن ابن أبي مريم عن عبدالرحمن بن غنم الأشعري

عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «ليشربنّ ناسٌ من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها، يُعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردةَ والخنازير» وهذا إسناد صحيح [ابن ماجه: ٤٠٢٠، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه]. وقد توعَّد مستحلّي المعازف فيه بأن يخسف الله بهم الأرض، ويمسخهم قردة وخنازير. وإن كان الوعيد على جميع هذه الأفعال، فلكل واحد قِسْطٌ في الذم والوعيد.

وفي الباب عن سَهْل بن سعد الساعدي، وعِمران بن حُصَين، وعبدالله ابن عمرو، وعبدالله بن عباس، وأبي هريرة، وأبي أُمامة الباهليّ، وعائشة أم المؤمنين، وعلي بن أبي طالب، وأنس بن مالك، وعبدالرحمن بن سابط، والغازي بن ربيعة.

ونحن نسوقها لتقرّ بها عيون أهل القرآن، وتشْجَى بها حُلوق أهل سماع الشيطان.

فأما حديث سهل بن سعد، فقال ابن أبي الدنيا: أخبرنا الهيثم بن خارجة، حدثنا عبدالرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد الساعدي، قال: قال رسول الله ﷺ «يكون في أمتي خَسْف وقذف ومسخ، قيل: يا رسول الله، متى؟ قال: إذا ظهرت المعازف والقينات، واستُحِلَّت الخمرة» .

وأما حديث عِمران بن حصين، فرواه الترمذي من حديث الأعمش عن هلال بن يِساف عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ : «يكون في أمتي قَذْف وخَسْف ومَسْخ، فقال رجل من المسلمين: متى ذاك، يا رسول الله؟ قال: إذا ظهرت القِيان، والمعازف، وشُربت ا لخمور» قال الترمذي: هذا حديث غريب.

وأما حديث عبدالله بن عمرو. فروى أحمد في مسنده وأبو داود عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى حَرَّم على أمَّتي الخمر والميسر والكوبَة والغُبَيْراء، وكلّ مسكر حرام» [أبو داود: ٣٦٩٦. وصححه الألباني في صحيح أبي داود].

وفي لفظ آخر لأحمد «إن الله حرّم على أمتي الخمر والميسر والمِزْرَ والكوبَة والقِنِّين» .

ثم ذكر ابن القيم أحاديث أبي أمامة الباهلي، وعائشة أم المؤمنين، وعلي بن أبي طالب، وأنس بن مالك وعبدالرحمن بن سابط، والغازي بن ربيعة.

المبحث الثاني

الجن والشياطين مكلّفون

استدل ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه:١٢٣]. على أن هذا خطاب لمن أهبط من الجنة، وهما أبوا الإنس والجن، ثم قال: «وهو دليل على أن الجن مأمورون منهيون، داخلون تحت شرائع الأنبياء، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمة، وأن نبينا بعث إليهم كما بعث إلى الإنس، كما لا خلاف بينهم أن مسيئهم مستحق للعقاب» [مفتاح دار السعادة: ١/ ١٨٩].

وقد نقل ابن القيم رحمه الله تعالى عن أبي الحسن الأشعري في كتابه المقالات: أن الناس اختلفوا في الجن، هل هم مكلفون أم مضطرون، فقال: «قال قائلون من المعتزلة وغيرهم: هم مأمورون منهيون، وقد أمروا ونهوا، وهم مختارون، وزعم زاعمون أنهم مضطرون» [تقريب طريق الهجرتين: ص٥٧٧].

وعلّق ابن القيم رحمه الله على كلام أبي الحسن قائلاً: «الصواب الذي عليه جمهور أهل الإسلام أنهم مأمورون منهيون مكلفون بالشريعة الإسلامية، وأدلة القرآن والسنّة على ذلك أكثر من أن تُحصر، فإضافة هذا القول إلى المعتزلة بمنزلة أن يقال: ذهبت المعتزلة إلى القول بمعاد الأبدان، ونحو ذلك مما هو من أقوال سائر أهل الإسلام. وقال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [الأحقاف:١٨] الآية.

فأخبر أن منهم من حق عليه القول أي وجب عليه العذاب وأنه خاسر، ولا يكون ذلك إلا في أهل التكليف المستوجبين العقاب بأعمالهم، ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ [الأحقاف:١٩] أي في الخير والشر يوفونها، ولا يظلمون شيئاً من أعمالهم، وهذا ظاهر جداً في ثوابهم وعقابهم، وأن مسيئهم كما يستحق العذاب بإساءته، فمحسنهم يستحق الدرجات بإحسانه، ولكل درجات مما عملوا، فدل ذلك لا محالة أنهم كانوا مأمورين بالشرائع، متعبدين بها في الدنيا، ولذلك استحقوا الدرجات بأعمالهم في الآخرة في الخير والشر.

وقال الله تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [فصلت:٢٥] الآية، ومعنى الآية: إن الله قيض المشركين - أي سبب لهم - قرناء من الشياطين يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة، وما فيها من الثواب والعقاب، وقيل: عكس هذا، وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم في الدنيا وحرصهم عليها، وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة.

وقال الحسن: ما بين أيديهم هو حب ما كان عليه آباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل، وما خلفهم تكذيبهم بالبعث وما بعده، وفي الآية قول رابع وهو أن التزيين كله راجع إلى أعمالهم فزيّنوا لهم ما بين أيديهم: أعمالهم التي عملوها، وما خلفهم: الأعمال التي هم عازمون عليها ولما يعملوها بعد، وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق، ومن جعل ما خلفهم هو الآخرة لم يستقم قوله إلا بإضمار، أي زينوا لهم التكذيب بالآخرة، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر، فإنهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد

للقائها، ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير حتى لم يذكر البغوي غيره، وحكاه عن الزجاج فقال الزجاج: سببنا لهم قرناء نظراء من الشياطين حتى أضلوهم، فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة، وما خلفهم من أمر الآخرة، فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث.

والمقصود: أن قوله تعالى: ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ [فصلت:٢٥] أي وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والإنس، ففي هذا أبين دليل على تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهي بهم، وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم.

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام:١٢٨] وهذا صريح في تكليفهم، فإن هذا القول يقال للجن في القيامة، فيذكر الإنس استمتاع بعضهم ببعض في الدنيا، وذلك الاستمتاع هو ما بين الجن والإنس من طاعتهم إياهم في معصية الله، وعبادتهم لهم دون الله، ليستعينوا بهم على شهواتهم وأغراضهم، فإنهم كانوا يستوحونهم، ويعوذون بهم، ويذبحون لهم وبأسمائهم، ويوالونهم من دون الله كما هو شأن أكثر المشركين من أولياء الشيطان. فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض، ولهذا يقول تعالى للملائكة يوم القيامة - وقد جمع العابدين والمعبودين - : ﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ

أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾ [سبأ:٤٠-٤١] فهؤلاء عباد الجن وأولياء الشياطين، وأكثرهم يعلم ذلك، ويرضى به لما ينال به من المتعة بمعبوده، وكثير منهم ملبوس عليه، فهو يعبد الشيطان ولا يشعر، وقد أشار بذلك زيد بن عمرو ابن نفيل في شعره إلى هذا الشرك بالجن فقال:

حنانيك إن الجن كانت رجاءهم وأنت إلهي ربّنا ورجاؤنا

لهذا يقولون في القيامة: ﴿ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٍ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَا ﴾ [الأنعام:١٢٨]. قال الله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام:١٢٨] فهذا خطاب للصنفين، وهو صريح في اشتراكهم في التكليف، كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب. وهو كثير في القرآن.

ومما يدل على تكليفهم أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام:١٣٠] فلما اعترفوا بأنهم كانوا كافرين، وشهدوا على أنفسهم بالكفر، دلّ ذلك على تكليفهم وتوجه الخطاب إليهم.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٢] فهذا يدل على تكليفهم من وجوه متعددة:

أحدها: أن الله سبحانه وتعالى صرفهم إلى رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه.

الثاني: أنهم ولّوا إلى قومهم منذرين، والإنذار هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه، فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول.

الثالث: أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه، وأنه يهدي إلى الحق، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى وبالكتاب المنزّل عليه، وأن القرآن مصدق له، وأنه هادٍ إلى صراط مستقيم، وهذا يدل على تمكنهم من العلم الذي تقوم به الحجة، وهم قادرون على امتثال ما فيه، والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة.

الرابع: أنهم قالوا لقومهم: ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ [الأحقاف:٣١] وهذا صريح في أنهم مكلفون مأمورون بإجابة الرسول، وهي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر.

الخامس: أنهم قالوا: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [الأحقاف:٣١] والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب وهو مخالفة الأمر.

السادس: أنهم قالوا: ﴿ مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ [الأحقاف:٣١] والذنب مخالفة الأمر.

السابع: أنهم قالوا: ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف:٣١] وهذا يدل على أن من لم يستجب منهم لداعي الله لم يجره من العذاب الأليم. وهذا صريح في تعلق الشريعة الإسلامية بهم.

الثامن: أنهم قالوا: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ [الأحقاف:٣٢]، وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن إجابة داعي الله منهم. وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن. والآية لا تستلزمه ولكن قوله تعالى: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنعام:١٣٠] الآية،

يدل على أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ ، والآيات المتقدمة تدل على ذلك أيضاً.

وعلى هذا فيكون اختصاص النبي ﷺ بالبعثة إلى الثقلين هو اختصاصه بالبعثة إلى جميعهم لا إلى بعضهم، ومن قبله كان يبعث إلى طائفة مخصوصة.

وأيضاً فقد قال تعالى عن نبيّه سليمان: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سبأ:١٢] وهذا محض التكليف. وقد تقدم قوله حكاية عنهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن:١٤-١٥] وقد صح أن رسول الله ﷺ قرأ عليه القرآن، وأنهم سألوه الزاد لهم ولدوابهم، فجعل لهم كل عظم ذكر اسم الله عليه، وكل بعرة علف لدوابهم، ونهانا عن الاستنجاء بهما [البخاري: ٣٨٦٠، مسلم: ٤٥٠]. ولو لم يكن في هذا إلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء:١٥] وقد أخبر أنه يعذب كفرة الجن لكفى به حجة على أنهم مكلفون باتباع الرسل.

ومما يدل على أنهم مأمورون منهيون بشريعة الإسلام ما تضمنته سورة الرحمن، فإنه سبحانه وتعالى ذكر خلق النوعين في قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن:١٤-١٥] ثم خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الإيمان منهم، وإنكار تكذيبهم بالآية، وترغيبهم في وعده، وتخويفهم من وعيده، وتهديدهم بقوله تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ [الرحمن:٣١] وتخويفهم من عواقب

ذنوبهم، وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام، بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بنواصيهم والأقدام، ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم. وهذا كله صريح في أنهم هم المكلفون المأمورون المنهيون المثابون المعاقبون.

وفي الترمذي من حديث محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أوّلها إلى آخرها فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، وكانوا أحسن مردوداً منكم: كنت كلما أتيت على آية: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن:١٣] قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد» وهذا يدل على ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤنة الخطاب، وعلمهم أنهم مقصودون به.

وقوله في هذه السورة: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴾ [الرحمن:٣١] وعيد للصنفين المكلفين بالشرائع، قال قتادة: معناه فراغ الدنيا وانقضاؤها، ومجيء الآخرة والجزاء فيها، والله سبحانه لا يشغله شيء عن شيء. والفراغ في اللغة على وجهين: فراغ من الشغل، وفراغ بمعنى القصد. وهو في هذا الموضع بالمعنى الثاني، وهو قصد لمجازاتهم بأعمالهم يوم الجزاء.

وقوله: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ﴾ [الرحمن:٣٣] فيها قولان: أحدهما: إن استطعتم أن تنفذوا ما في السموات والأرض علماً - أي أن تعلموا ما فيهما - فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان، أي إلا ببينة من الله. وعلى هذا فالنفوذ ههنا نفوذ علم الثقلين في السموات والأرض. الثاني: إن استطعتم أن تخرجوا عن قهر الله ومحل سلطانه ومملكته بنفوذكم من أقطار السموات

والأرض وخروجكم عن محل حكم الله وسلطانه فافعلوا، ومعلوم أن هذا من الممتنع عليكم، فإنكم تحت سلطاني وفي محل ملكي وقدرتي أين كنتم. وقال الضحاك: معنى الآية إن استطعتم أن تهربوا عند الموت فاهربوا فإنه مدرككم، وهذه الأقوال على أن يكون الخطاب لهم بهذا القول في الدنيا.

وفي الآية تقرير آخر، وهو أن يكون هذا الخطاب في الآخرة إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض، وأحاط سرادق النار بالآفاق، فهرب الخلائق، فلا يجدون مهرباً ولا منفذاً. كما قال تعالى: ﴿ وَيَـٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ۝ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ ﴾ [غافر:٣٢-٣٣]. قال مجاهد: فارّين غير معجزين، وقال الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندّوا هرباً، فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَا ﴾ [الحاقة:١٧] وقوله تعالى: ﴿ يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ ﴾ [الرحمن:٣٣] وهذا القول أظهر، والله أعلم.

فإذا بده الخلائق ولوا مدبرين يقال لهم: ﴿ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ ﴾ [الرحمن:٣٣] أي إن قدرتهم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض، فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم فافعلوا. وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول، فإن قبلها: ﴿ سَنَفۡرُغُ ﴾ [الرحمن:٣١] الآية، وهذا في الآخرة، وبعدها: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمن:٣٧] وهذا في الآخرة. وأيضاً فإن هذا خطاب لجميع الإنس والجن، فإنه أتى فيه بصيغة العموم وهي قوله تعالى:

﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [الرحمن:٣٣] فلا بد أن يشترك الكل في سماع هذا الخطاب ومضمونه.

وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وقال تعالى: ﴿ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [الرحمن:٣٣] ولم يقل إن استطعتما، لإرادة الجماعة كما في آية أخرى: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ [الأنعام:١٣٠] ، وقال تعالى: ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا ﴾ [الرحمن:٣٥] ولم يقل يرسل عليكم لإرادة الصنفين أي لا يختص به صنف عن صنف، بل يرسل ذلك على الصنفين معاً. وهذا وإن كان مراداً بقوله تعالى: ﴿ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [الرحمن:٣٣] فخطاب الجماعة في ذلك بلفظ الجمع أحسن، أي من استطاع منكم، وحُسْن الخطاب بالتثنية في قوله تعالى: ﴿ عَلَيْكُمَا ﴾ [الرحمن:٣٥] أمر آخر. وهو موافقة رؤوس الآي، فاتصلت التثنية بالتثنية. وفيه التسوية بين الصنفين في العذاب بالتنصيص عليهما، فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما. والله أعلم. قال ابن عباس: الشواظ اللهب الذي لا دخان فيه، والنحاس الدخان الذي لا لهب فيه.

وقوله تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن:٣٩] فأضاف الذنوب إلى الثقلين، وهذا دليل على أنهما سوّيا في التكليف، واختلف في هذا السؤال المنفي، فقيل: هو وقت البعث والمصير إلى الموقف، لا يسألون حينئذ، ويسألون بعد إطالة الوقوف واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ويريحهم من مقامهم ذلك، وقيل: المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار، لا سؤال المحاسبة والمجازاة، أي قد علم الله ذنوبهم فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها، وإنما يحاسبهم عليها» [تقريب طريق الهجرتين: ٥٧٨-٥٨٥].

المبحث الثالث

رسل الإنس هم رسل الجن

ذهب ابن القيم إلى أن رسل الجن هم رسل الإنس، ثم قال:

«وذهب شذاذ من الناس إلى أن فيهم الرسل والأنبياء محتجين على ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ﴾ [الأنعام:١٣٠] وبقوله: ﴿ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ إلى قوله: ﴿ مُّنذِرِين ﴾ [الأحقاف:٢٩] وقد قال الله تعالى: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [النساء:١٦٥] وهذا قول شاذ لا يلتفت إليه، ولا يعرف به سلف من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ﴾ [الأنعام:١٣٠] لا يدل على أن الرسل من كل واحدة من الطائفتين، بل إذا كانت الرسل من الإنس وقد أمرت الجن باتباعهم صح أن يقال للإنس والجن: ألم يأتكم رسل منكم.

ونظير هذا أن يقال للعرب والعجم: ألم يجئكم رسل منكم يا معشر العرب والعجم، فهذا لا يقتضي أن يكون من هؤلاء رسل ومن هؤلاء، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا ﴾ [نوح:١٦] وليس في كل سماء قمر، وقوله تعالى: ﴿ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الأحقاف:٢٩] فالإنذار أعم من الرسالة والأعم لا يستلزم الأخص، قال تعالى: ﴿ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [التوبة:١٢٢] فهؤلاء نذر وليسوا برسل.

قال غير واحد من السلف: الرسل من الإنس، وأما الجن ففيهم النذر، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [يوسف: ١٠٩] فهذا يدل على أنه لم يرسل جنياً ولا امرأة ولا بدوياً، وأما تسميته تعالى الجن رجالاً في قوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الجن:٦] فلم يطلق عليهم الرجال، بل هي تسمية مقيدة بقوله: ﴿ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾، فهم رجال من الجن، ولا يستلزم ذلك دخولهم في الرجال عند الإطلاق كما تقول: رجال من حجارة، ورجال من خشب ونحوه» [تقريب طريق الهجرتين: ٥٧٤-٥٧٥].

نبينا محمد ﷺ مرسل إلى الثقلين باتفاق :

ذكر ابن القيم أنه لا خلاف بين الأمة أن رسولنا ﷺ مرسل إلى الجن كما هو مرسل إلى الإنس بلا خلاف بين الأمة، وفي ذلك يقول: «جاءت الرسول ﷺ وفود من الجن، فعلمهم الدين الذي بعث به، فمن ذلك ما رواه الترمذي وصححه من حديث عبدالله بن مسعود قال: صلى رسول الله ﷺ العشاء ثم انصرف، فأخذ بيدي حتى خرج بي إلى بطحاء مكة، فأجلسني ثم خطّ عليّ خطاً، ثم قال: «لا تبرحن خطّك فإنه سينتهي إليك رجال فلا تكلمهم فإنهم لا يكلمونك» ثم مضى رسول الله ﷺ حيث أراد، فبينا أنا جالس في خطي إذ أتاني رجال كأنهم الزُّطُّ، أشعارهم وأجسامهم، لا أرى عورةً ولا أرى قشراً، وينتهون إليّ لا يُجاوزون الخطّ، ثم يصدرون إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان من آخر الليل، لكن رسول الله ﷺ قد جاءني وأنا جالس فقال: لقد أراني منذ الليلة ثم دخل عليّ في خطي، فتوسّد فخذي، فرقد، وكان رسول الله ﷺ إذا رقد نفخ» الحديث [رواه الترمذي: ٢٨٦١، وقال هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، والزط: السودان] [حاوي الأرواح: ١١٢].

المبحث الرابع
الجن محاسبون مجزيون في الآخرة

المطلب الأول
كفرة الجن في النار

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وقد اتفق المسلمون على أن كفار الجن في النار، وقد دلّ على ذلك القرآن في غير موضع كقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة:١٣] وقوله تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٥] الآية، فملؤها منه به وبكفار ذريته، وقال تعالى: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ﴾ [الأعراف:٣٨] قال تعالى حكاية عن مؤمنهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ حَطَبًا ﴾ [الجن:١٤-١٥] وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال الله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۞ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ [الشعراء:٩٤-٩٥] وجنوده إن لم يختص بالشياطين فهم داخلون في عمومه.

وبالجملة فهذا أمر معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، وهو يستلزم تكليف الجن بشرائع الأنبياء ووجوب اتباعهم لهم، فأما شريعتنا فأجمع المسلمون على أن محمداً ﷺ بعث إلى الجن والإنس، وأنه يجب على الجن

طاعته، كما يجب على الإنس، وأما قبل نبينا ﷺ فقوله تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ ﴾ [الأعراف:٣٨] يدل على أن الأمم الخالية من كفار الجن في النار، وذلك إنما يكون بعد إقامة الحجة عليهم بالرسالة.

وقد دلت سورة الرحمن على تكليفهم بالشرائع كما كلف الإنس، ولهذا يقول في إثر كل آية: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن:١٣] فدل ذلك على أن السورة خطاب للثقلين معاً، ولهذا قرأها رسول الله ﷺ على الجن قراءة تبليغ، وأخبر أصحابه أنهم كانوا أحسن رداً منهم، فإنهم جعلوا يقولون كلما قرأ عليهم: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن:١٣]: لا نكذب بشيء من آلائك ربنا فلك الحمد. ولما كان أبوهم هو أول من دعا إلى معصية الله، وعلى يده حصل كل كفر وفسوق وعصيان، فهو الداعي إلى النار، وكان أول من يكسى حلة من النار يوم القيامة يسحبها وينادي: «واثبوراه» فأتباعه من أولاده وغيرهم خلفه ينادون: «واثبوراهم» حتى قيل: إن كان عذاب يقسم على أهل النار يبدأ به فيه، ثم يصير إليهم [تقريب طريق الهجرتين: ٥٧٥-٥٧٦].

المطلب الثاني
الحق أن مؤمني الجن يدخلون الجنة

ذكر ابن القيم أن «علماء الإسلام اختلفوا في المسلم من الجن، هل يدخل الجنة، فالجمهور على أن محسنهم في الجنة، كما أن مسيئهم في النار، وقيل: بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم، وأما الجنة فلا يدخلها أحد من

أولاد إبليس، وإنما هي لبني آدم وصالحي ذريته، وحُكي هذا القول عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى» [مفتاح دار السعادة: ١/١٨٩].

ورجح ابن القيم قول الجمهور، واحتج له بأدلة كثيرة:

«أحدها: قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه:١٢٣] فإنه سبحانه أخبر أن من اتبع هداه فلا يخاف، ولا يحزن، ولا يضل، ولا يشقى، وهذا مستلزم لكمال النعيم» [مفتاح دار السعادة:١٨٩].

وتابع ابن القيم رحمه الله الاستدلال بالآية قائلاً: «ومعلوم أن سياق الآية ومقصودها إنما أُريدَ به أن من اتبع هدى الله الذي أنزله حصل له غاية النعيم، واندفع عنه غاية الشقاء، وعبر عن هذا المعنى المطلوب بنفي الأمور المذكورة لاقتضاء الحال؛ لذلك فإنه لما أُهبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ما حصل، فأخبره سبحانه أنه معطيه وذريته عهداً؛ من اتبعه منهم انتفى عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء.

ومعلوم أنه لا ينتفي ذلك كله إلا بدخول دار النعيم، ولكن المقام بذكر التصريح بنفي غاية المكروهات أولى.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۞ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣١]، فأخبرنا سبحانه عن نذيرهم

إخباراً بقوله: إن من أجاب داعيهُ غَفَرَ له وأجاره من العذاب، ولو كانت المغفرة لهم إنما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب كان ذلك حاصلاً بقوله: ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف:٣١]، بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار، فكل من غفر الله له فلابد من دخوله الجنة.

الثالث: قوله تعالى في الحور العين: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن:٧٤] فهذا يدل على أن مؤمني الجن والإنس يدخلون الجنة، وأنه لم يسبق من أحد منهم طمث لأحد من الحور، فدلّ على أن مؤمنيهم يتأتى منهم طمث الحور العين بعد الدخول، كما يتأتى من الإنس، ولو كانوا ممن لا يدخل الجنة لما حَسُنَ الإخبار عنهم بذلك.

الرابع: قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۞ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٤-٢٥].

والجن منهم مؤمن ومنهم كافر؛ كما قال صالحوهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ [الجن:١٤] ، فكما دخل كافرهم في الآية الثانية، وجب أن يدخل مؤمنهم في الآية الأولى.

الخامس: قوله عن صالحيهم: ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴾ [الجن:١٤]، والرشد هو الهدى والفلاح، وهو الذي يهدي إليه القرآن، ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشد، بل لم يحصل له من الرشد إلا مجرد العدم.

السادس: قوله تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الحديد:٢١]، ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسله، فيدخل في المبشرين ويستحق البشارة.

السابع: قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [يونس:٢٥]، عمّ سبحانه بالدعوة، وخصّ بالهداية المفضية إليها، فمن هداه إليها فهو ممن دعاه إليها، فمن اهتدى من الجن فهو من المدعوين إليها.

الثامن: قوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ۞ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۞ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ۞ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ۞ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٨-١٣٢]، وهذا عام في الجن والإنس، فأخبر تعالى أن لكلهم درجات من عمله، فاقتضى أن يكون لمحسنهم درجات من عمله كما لمحسن الإنس.

التاسع: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت:٣٠].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف:١٣-١٤].

ووجه التمسك بالآية من وجوه ثلاثة:

أحدها: عموم الاسم الموصول فيها.

الثاني: ترتيبه الجزاء المذكور على المسألة ليدل على أنه مستحق بها، وهو قول: ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأحقاف:١٣] مع الاستقامة، والحكم يعمّ بعموم علّته، فإذا كان دخول الجنة مرتباً على الإقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة على أمره، فمن أتى بذلك استحق الجزاء.

الثالث: أنه قال: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف:١٣-١٤] فدل على أن كل من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة.

وقد تقدم في أول الآيات قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة:٣٨]، وأنه متناول للفريقين، ودلت هذه الآية على أن من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة» [مفتاح دار السعادة: ١٩٠-١٩٣].

وأورد ابن القيم رحمه الله تعالى في موضع آخر قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن:٥٦] محتجاً بها على أن الجن في الجنة يطؤون كما يطأ الإنس، وفي ذلك يقول: «قال المفسرون: لم يطأهن، ولم يغشهن، ولم يجامعهن» وقال: «قال أبو إسحاق: وفي هذه الآية دليل على أن الجن يغشى، كما أن الإنس يغشى» وقال: «في الآية دليل لما ذهب إليه الجمهور أن مؤمن الجن في الجنة، كما أن كافرهم في النار، وبوب عليه البخاري في صحيحه، فقال: باب ثواب الجن وعقابهم، ونص عليه غير واحد من السلف» [حادي الأرواح: ٣٢٠-٣٢١].

واحتج ابن القيم رحمه الله تعالى على دخول مؤمني الجن الجنة بقوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦-٤٧] وذكر ما في الجنتين إلى قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن:٥٦]، وهذا يدل على أن ثواب محسنهم الجنة من وجوه:

أحدها: أن «من» من صيغ العموم، فتتناول كل خائف.

الثاني: أنه رتب الجزاء المذكور على خوف مقامه، فدل على استحقاقه به.

الثالث: قوله عقيب هذا الوعد: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن:٤٧] .

الرابع: أنه ذكر في وصف نسائهم أنهن ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن:٥٦] وهذا - والله أعلم - معناه أنه لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم، ولا نساء الجن جن قبلهم.

ومما يدل على أن ثوابهم الجنة قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [الكهف:٣٠-٣١] وأمثال هذه من العمومات. وقد ثبت أن منهم المؤمنين فيدخلون في العموم، كما أن كافرهم يدخل في الكافرين المستحقين للوعيد. ودخول مؤمنهم في آيات الوعد أولى من دخول كافرهم في آيات الوعيد فإن الوعد فضله والوعيد عدله، وفضله من رحمته وهي تغلب غضبه.

وأيضاً فإن دخول عاصيهم النار إنما كان لمخالفته أمر الله، فإذا أطاع الله أدخل الجنة، وأيضاً فإنه لا دار للمكلفين سوى الجنة والنار، وكل من لم يدخل النار من المكلفين فالجنة مثواه، وأيضاً فقد ثبت أنهم إذا أجابوا داعي الله غفر لهم وأجارهم من عذابه، وكل من غفر له دخل الجنة ولابد، وليس فائدة المغفرة إلا الفوز بالجنة والنجاة من النار.

وأيضاً فإنه قد ثبت أن الرسول مبعوث إليهم، وأنهم مكلفون باتباعه، وأن مطيعهم لله ورسوله مع الذين أنعم الله عليهم، لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء:٦٩]. وقد أخبر سبحانه عن ملائكته حملة العرش ومن حولهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا وأنهم يقولون: ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۞ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ ﴾ [غافر:٧-٨] فدل على أن كل مؤمن غفر الله له ووقاه عذاب الجحيم فقد وعدوه الجنة، وقد ثبت في حق مؤمنهم الإيمان ومغفرة الذنب ووقاية النار كما تقدم فتعين دخولهم الجنة، والله أعلم» [تقريب طريق الهجرتين: ٥٨٦-٥٨٩].

المبحث الخامس

السقوط الكبير لإبليس

المطلب الأول

كيد الشيطان لنفسه قبل كيده لغيره

في ذكر ابن القيم لسقوط الشيطان الكبير عندما رفض السجود لآدم بين أنه كاد نفسه قبل أن يكيد آدم وزوجه، وفي ذلك يقول:

«في بيان كيد الشيطان لنفسه، قبل كيده للأبوين، ثم لم يقتصر على ذلك، حتى كاد ذرية نفسه، وذرية آدم، فكان مشؤوماً على نفسه، وعلى ذريته وأوليائه وأهل طاعته من الجن والإنس.

أما كيده لنفسه فإن الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم عليه السلام، كان في امتثال أمره وطاعته سعادته وفلاحه، وعِزّه ونجاته، فسوّلت له نفسه الجاهلة الظالمة: أن في سجوده لآدم عليه السلام غضاضة عليه، وهضماً لنفسه، إذ يخضع ويقع ساجداً لمن خُلق من طين، وهو مخلوق من نار، والنار - بزعمه - أشرف من الطين، فالمخلوق منها خير من المخلوق منه، وخضوع الأفضل لمن هو دونه غضاضة عليه، وهضم لمنزلته.

فلما قام بقلبه هذا الهوس، وقارنه الحسد لآدم، لما رأى ربه سبحانه قد خصّه به من أنواع الكرامة. فإنه خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وميّزه بذلك عن الملائكة وأسكنه جنته، فعند ذلك بلغ الحسد من عدو الله كل مبلغ.

وكان عدو الله يطيف به وهو صلصال كالفخار، فيتعجب منه، ويقول: لأمر عظيم قد خلق هذا، ولئن سُلِّط عليّ لأعصينّه، ولئن سُلِّطت عليه لأهلكنه، فلما تم خلق آدم عليه السلام في أحسن تقويم وأكمل صورة وأجملها، وكمُلت محاسنه الباطنة، بالعلم والحلم والوقار، وتولى ربه سبحانه خلقه بيده، فجاء في أحسن خلق، وأتم صورة، طوله في السماء ستون ذراعاً، قد ألبس رداء الجمال والحُسْن، والمهابة والبهاء، فرأت الملائكة منظراً لم يُشاهدوا أحسن منه ولا أجمل، فوقعوا كلهم سجوداً له، بأمر ربهم تبارك وتعالى.

فشقّ الحسود قميصه من دُبُر، واشتعلت في قلبه نيران الحسد المتين، فعارض النص بالمعقول بزعمه، كفعل أوليائه من المبطلين، وقال: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف:١٢] فأعرض عن النص الصريح، وقابله بالرأي الفاسد القبيح، ثم أردف ذلك بالاعتراض على العليم الحكيم، الذي لا تجد العقول إلى الاعتراض على حكمته سبيلاً. فقال: ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٦٢] .

وتحت هذا الكلام من الاعتراض معنى: أخبرني، لم كرّمته عليّ؟ وغَوْرُ هذا الاعتراض: أن الذي فعلته ليس بحكمة ولا صواب، وأن الحكمة كانت تقتضي أن يسجد هو لي، لأن المفضول يخضع للفاضل، فلم خالفت الحكمة؟ .

ثم أردف ذلك بتفضيل نفسه عليه، وازدرائه به، فقال: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف:١٢].

ثم قرر ذلك بحجته الداحضة، في تفضيل مادته وأصله على مادة آدم عليه السلام وأصله، فأنتجت له هذه المقدمات إباءه وامتناعه من السجود، ومعصيته الرب المعبود، فجمع بين الجهل والظلم، والكِبْر والحسد والمعصية، ومعارضة النص بالرأي والعقل، فأهان نفسه كل الإهانة من حيث أراد تعظيمها، ووضعها من حيث أراد رفعتها، وأذلها من حيث أراد عزتها، وآلمها كل الألم من حيث أراد لذتها، ففعل بنفسه ما لو اجتهد أعظم أعدائه في مضرته لم يبلغ منه ذلك المبلغ. ومن كل هذا غشه لنفسه، فكيف يسمع منه العاقل ويقبل، ويواليه؟ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠] [إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٠٠-٢٠٢].

جعله الله أذل الأذلين :

وقال ابن القيم مبيناً ما فعله الشيطان بنفسه باختياره عندما رفض السجود لآدم:

«واعتبر ذلك بحال إبليس، فإنه امتنع من السجود لآدم فِراراً أن يخضع له ويذل، وطلب إعزاز نفسه، فصيّره الله أذلّ الأذلين، وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجور من ذريته فلم يرض بالسجود له، ورضي أن يخدم هو وبنوه فُسّاق ذريته.

وكذلك عُبّاد الأصنام، أنفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر، وأن يعبدوا إلهاً واحداً سبحانه، ورضوا أن يعبدوا آلهة من الأحجار.

وكذلك كل من امتنع أن يذل لله، أو يبذل ماله في مرضاته، أو يتعب نفسه وبدنه في طاعته، لابد أن يذل لمن لا يسوى، ويبذل له ماله، ويتعب

نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته، عقوبة له، كما قال بعض السلف «من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات في حاجة أمشاه الله تعالى أكثر منها في غير طاعته» [إغاثة اللهفان: ٢/ ١٩٥].

المطلب الثاني

اختيار إبليس الكفر عمداً على علم

يرى ابن القيم أن إبليس اختار الكفر عمداً على علم وعناد، وفي ذلك يقول:

«هذا شيخ الضلال، وداعي الكفر، وإمام الفجرة، إبليس عدو الله؛ قد علم أمر الله له بالسجود لآدم، ولم يشكّ فيه، فخالفه وعاند الأمر وباء بلعنة الله وعذابه الدائم، مع علمه بذلك ومعرفته به، وأقسم له بعزته أنه يُغوي خلقه أجمعين إلا عباده منهم المخلصين، فكان غير شاكّ في الله، وفي وحدانيته وفي البعث الآخر، وفي الجنة والنار، ومع ذلك اختار الخلود في النار، واحتمال لعنة الله وغضبه وطرده من سمائه وجنته، عن علم بذلك ومعرفة لم تحصل لكثير من الناس، ولهذا: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر:٣٦]. وهذا اعتراف منه بالبعث وإقرار به، وقد علم قَسَمَ ربه ليملأن جهنم منه ومن أتباعه؛ فكان كفره كفر عناد محض لا كفر جهل» [مفتاح دار السعادة: ١/ ٣٢٢].

المطلب الثالث

إبطال دعوى إبليس أنه خير من آدم

أمر الله الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام ، فسجدوا جميعاً كما أمرهم الله، وأبى ذلك إبليس، وبرر رفضه السجود بأنه خير من آدم، فهو مخلوق من نار، وإبليس من طين، والنار أفضل من الطين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ

خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف:١١-١٢].

وقد عرض ابن القيم لمقالة إبليس هذه، فقال: «ذكر مناظرة إبليس عدو الله في شأن آدم، وإبائه من السجود له وبيان فسادها، وقد كرر الله تعالى ذكرها في كتابه» .

وبيّن رحمه الله تعالى: «أن الله أخبر في قصة إبليس أن امتناعه عن السجود كان كبراً منه وكفراً، ومجرد إباء، وإنما ذكر تلك الشبهة تعنتاً، وإلا فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر، وإلا فليس في أمره بالسجود لآدم ما يناقض الحكمة بوجهه» .

ثم رد على شبهة إبليس التي احتج بها، فقال: «وأما شبهته الداحضة، وهي أن أصله وعنصره النار، وأصل آدم وعنصره التراب، ورتب على ذلك أنه خير من آدم، ثم رتب على هاتين المقدمتين أنه لا يُحسن منه الخضوع لمن هو فوقه، وخير منه، فهي باطلة من وجوه عديدة:

منها أن دعواه كونه خيراً من آدم دعوى كاذبة باطلة، واستدلاله عليها بكونه مخلوقاً من نار وآدم من طين استدلال باطل، وليست النار خيراً من الطين والتراب، بل التراب خير من النار، وأفضل عنصراً من وجوه:

أحدها: أن النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب.

الثاني: أن طبعها الخفة والحدة والطيش، والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات.

الثالث: أن التراب يتكون فيه ومنه أرزاق الحيوان وأقواتهم، ولباس العباد وزينتهم، وآلات معايشهم ومساكنهم، والنار لا يتكون فيها شيء من ذلك.

الرابع: أن التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه ألبتة، ولا عما يتكون فيه ومنه، والنار يستغني عنها الحيوان البهيم مطلقاً، وقد يستغني عنها الإنسان الأيام والشهور فلا تدعوه إليها الضرورة، فأين انتفاع الحيوان كله بالتراب إلى انتفاع الإنسان بالنار في بعض الأحيان.

الخامس: أن التراب إذا وُضع فيه القوت أخرجه أضعاف أضعاف ما وُضع فيه، فمن بركته يؤدي إليك ما تستودعه فيه مضاعفاً، ولو استودعته النار لخانتك وأكلته، ولم تبقَ ولم تذر.

السادس: أن النار لا تقوم بنفسها، بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به يكون حاملاً لها، والتراب لا يفتقر إلى حامل فالتراب أكمل منها.

السابع: أن النار مفتقرة إلى التراب، وليس بالتراب فقر إليها، فإن المحل الذي تقوم به النار لا يكون إلا مكوناً من التراب أو فيه، فهي الفقيرة إلى التراب وهو الغني عنها.

الثامن: أن المادة الإبليسية هي المارج من النار، وهو ضعيف، يتلاعب به الهوى، فيميل معه كيفما مال، ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره، ولما كانت المادة الآدمية التراب، وهو قوي لا يذهب مع الهوى، أينما ذهب، قهر هواه وأسره، ورجع إلى ربه فاجتباه واصطفاه، فكان الهوى الذي

من المادة الآدمية عارضاً سريع الزوال فزال، وكان الثبات والرزانة أصلياً له فعاد إليه، وكان إبليس بالعكس من ذلك، فرجع كل من الأبوين إلى أصله، وعنصر آدم إلى أصله الطيب الشريف، واللعين إلى أصله الرديء.

التاسع: أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة والمتاع، فالشر كان فيها لا يصدها عنه إلا قسرها وحبسها، ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل، وأما التراب فالخير والبر والبركة كامن فيه كلما أثير وقلب ظهرت بركته وخيره وثمرته، فأين أحدهما من الآخر؟ .

العاشر: أن الله تعالى أكثر ذكر الأرض في كتابه، وأخبر عن منافعها وخلقها، وأنه جعلها مهاداً وفراشاً، وبساطاً وقراراً، وكفاتاً للأحياء والأموات، ودعا عباده إلى التفكر فيها والنظر في آياتها، وعجائب ما أودع فيها، ولم يذكر النار إلا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب إلا موضعاً أو موضعين ذكرها فيه بأنها تذكرة ومتاع للمقوين، تذكرة بنار الآخرة، ومتاع لبعض أفراد الإنسان، وهم المقوون النازلون بالأرض الخالية إذا نزلها المسافر تمتع بالنار في منزله، فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن.

الحادي عشر: أن الله تعالى وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصاً، وأخبر أنه بارك فيها عموماً، فقال: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [فصلت:٩-١٠] فهذه بركة عامة، وأما البركة الخاصة ببعضها فكقوله: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء:٧١]، وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ

﴿ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً ﴾ [سبأ:١٨]، وقوله: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ﴾ [الأنبياء:٨١]، وأما النار فلم يخبر أنه جعل فيها بركة أصلاً، بل المشهور أنها مذهبة للبركة، ماحقة لها، فأين المبارك في نفسه، المبارك فيما وضع فيه إلى مزيل البركة وماحقها.

الثاني عشر: أن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه، ويسبح له فيها بالغدو والآصال عموماً، وبيته الحرام الذي جعله قياماً للناس مباركاً فيه وهدى للعالمين خصوصاً، ولو لم يكن في الأرض إلا بيته الحرام لكفاها ذلك شرفاً وفضلاً على النار.

الثالث عشر: أن الله تعالى أودع في الأرض من المنافع والمعادن، والأنهار والعيون، والثمرات والحبوب، والأقوات وأصناف الحيوانات، وأمتعتها والجبال، والجنان والرياض، والمراكب البهية والصور البهيجة، ما لم يودع في النار شيئاً منه، فأي روضة وجدت في النار، أو جنة أو معدن، أو صورة أو عين فوارة، أو نهر مطرد أو ثمرة لذيذة، أو زوجة حسنة أو لباس وسترة.

الرابع عشر: أن غاية النار أنها وضعت خادمة لما في الأرض، فالنار إنما محلها محل الخادم لهذه الأشياء المكمل لها، فهي تابعة لها خادمة فقط، إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها، وإذا احتاجت إليها استدعتها استدعاء المخدوم لخادمه ومن يقضي حوائجه.

الخامس عشر: أن اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته رأى صورة الطين تراباً ممتزجاً بماء فاحتقره، ولم يعلم أن الطين مركب من أصلين الماء الذي جعل الله تعالى منه كل شيء حي، والتراب الذي جعله خزانة المنافع والنعم، هذا وكم يجيء من الطين من المنافع وأنواع الأمتعة، فلو تجاوز

نظره صورة الطين إلى مادته ونهايته لرأى أنه خير من النار وأفضل، وإذا استقريت الوجوه التي تدلك على أن التراب أفضل من النار وخير منها وجدتها كثيرة جداً، وإنما أشرنا إليها إشارة.

ثم لو سلم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين لم يلزمه من ذلك أن يكون المخلوق منها خيراً من المخلوق من الطين، فإن القادر على كل شيء يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممن خلقه من المادة الفاضلة، والاعتبار بكمال النهاية لا ينقص المادة، فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة، ولم يعبر منها إلى كمال الصورة ونهاية الخلقة، فأين الماء المهين الذي هو نطفة ومضغة واستقذار النفوس له إلى كمال الصور الإنسانية التامة المحاسن خلقاً وخلقاً.

وقد خلق الله تعالى الملائكة من نور وآدم من تراب، ومن ذرية آدم من هو خير من الملائكة، وإن كان النور أفضل من التراب، فهذا وأمثاله مما يدلك على ضعف مناظرة اللعين وفساد نظره وإدراكه، وأن الحكمة كانت توجب عليه خضوعه لآدم فعارض حكمة الله وأمره برأيه الباطل ونظره الفاسد، فقياسه باطل نصاً وعقلاً، وكل من عارض نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفائه وأتباعه فنعوذ بالله من الخذلان» [بدائع الفوائد: ٤/١١٨-١٢٠].

المبحث السادس

المعركة بين إبليس وبين آدم وذريته

مخلوق جديد قادم إلى الكون

نوّه الحق - تبارك وتعالى - للملائكة بمخلوق جديد قادم إلى الكون، يملك خصائص جديدة، تسوّده وتعليه، وقد أحدث إيجاده في نفس الشيطان أثراً واضحاً، فعزم على الكيد لآدم، وهو لا يزال جثة من تراب قبل نفخ الروح فيه، يقول ابن القيم في هذا: «تأمل كيف كتب سبحانه عذر آدم قبل هبوطه إلى الأرض، ونبه الملائكة على فضله وشرفه ونوه باسمه قبل إيجاده بقوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة:٣٠].

وتأمل كيف وسمه بالخلافة، وتلك ولاية له قبل وجوده، وأقام عذره قبل الهبوط بقوله: (في الأرض). والمحب يقيم عذر المحبوب قبل جنايته، فلما صوره ألقاه على باب الجنة أربعين سنة، لأن دأب المحب الوقوف على باب الحبيب، ورمى به في طريق ذل (لم يكن شيئاً) لئلا يعجب يوم (اسجدوا)، وكان إبليس يمر على جسده فيعجب منه ويقول: لأمر قد خلقت، ثم يدخل من فيه ويخرج من دبره ويقول: لئن سلطت عليك لأهلكنك، ولئن سلطت عليّ لأعصينك، ولم يعلم أن هلاكه على يده.

رأى طيناً مجموعاً فاحتقره، فلما صور الطين صوره دب فيه داء الحسد، فلما نفخ فيه الروح مات الحاسد، فلما بسط له بساط العز عرضت عليه المخلوقات، فاستحضر مدعي (ونحن نسبح) إلى حاكم (أنبئوني). وقد

أخفى الوكيل عنه بينة (وعلم) فنكسوا رؤوس الدعاوى على صدور الإقرار.

فقام منادي التفضيل في أندية الملائكة ينادي: (اسجدوا) فتطهروا من حدث دعوى (ونحن) بماء العذر في آنية (لا علم لنا)، فسجدوا على طهارة التسليم، وقام إبليس ناحية لم يسجد، لأنه خبث، وقد تلون بنجاسة الاعتراض، وما كانت نجاسته تتلافى بالتطهير، لأنها عينية، فلما تم كمال آدم قيل: لابد من خال جمال على وجه (اسجدوا)، فجرى القدر بالذنب ليتبين أثر العبودية في الذل.

يا آدم لو عفي لك عن تلك اللقمة لقال الحاسدون: كيف فضل ذو شره لم يصبر على شجرة، لولا نزولك ما تصاعدت صعداء الأنفاس، ولا نزلت رسائل «هل من سائل؟» ولا فاحت روائح «ولخلوف فم الصائم» ، فتبين حينئذ أن ذلك التناول لم يكن عن شره.

يا آدم، ضحكك في الجنة لك، وبكاؤك في دار التكليف لنا [الفوائد:٧٥-٧٦].

المطلب الأول

كيده للأبوين

أبى الشيطان طاعة الرحمن في السجود لآدم، فطرده الله من جنته ورحمته، فكاد الأبوين، وأخرجهما من الجنة، وفي ذلك يقول ابن القيم: «وأما كيده للأبوين، فقد قصّ الله سبحانه علينا قصته معهما وأنه لم يزل يخدعهما، ويعدهما، ويُمنِّيهما الخلود في الجنة، حتى حلف لهما بالله جهْد يمينه: إنه ناصح لهما، حتى اطمأنّا إلى قوله، وأجاباه إلى ما طلب منهما،

فجرى عليهما من المِحْنة والخروج من الجنة ونزْع لباسهما عنهما ما جرى، وكان ذلك بكيده ومكره الذي جرى به القلم، سبق به القدر، وردّ الله سبحانه كيده عليه، وتدارك الأبوين برحمته ومغفرته، فأعادهما إلى الجنة على أحسن الأحوال وأجملها، وعاد عاقبة مكره عليه ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر:٤٣].

وظن عدو الله بجهله أن الغلبة والظفر له في هذه الحرب، ولم يعلم بكمين جيش: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣] ولا بإقبال دولة ﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه:١٢٢] .

وظنّ اللعين بجهله أن الله سبحانه يتخلى عن صفيّه وحبيبه الذي خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسْجَدَ له ملائكته، وعلّمه أسماء كل شيء، من أجل أكلة أكلها.

وما علم أن الطبيب قد علّم المريض الدواء قبل المرض، فلما أحسّ بالمرض بادر إلى استعمال الدواء، لما رماه العدو بسهم وقع في غير مقتل، فبادر إلى مُداواة الجرح، فقام كأن لم يكن به قَلَبَة.

بُلِيَ العدو بالذنب فأصرّ واحتج وعارض الأمر، وقدح في الحكمة، ولم يسأل الإقالة، ولا ندم على الزّلّة. وبُلِيَ الحبيب بالذنب فاعترف وتاب وندم، وتضرع واستكان وفزع إلى مفزع الخليقة، وهو التوحيد والاستغفار، فأزيل عنه العَتْب، وغُفر له الذنب، وقُبل منه المتاب، وفُتح له من الرحمة والهداية كل باب، ونحن الأبناء، ومن أشبه أباه فما ظلم، ومن كانت شيمته التوبة والاستغفار فقد هُدِيَ لأحسن الشِّيم» [إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٠٢].

وذكر ابن القيم أن «الرب تعالى كان يعلم ما في قلب إبليس من الكفر، والكبر والحسد ما لا يعلمه الملائكة، فلما أمروا بالسجود ظهر ما في قلوبهم من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد فبادروا إلى الامتثال، وظهر ما في قلب عدوه من الكبر والغش والحسد، فأبى واستكبر وكان من الكافرين» [الفوائد:١٨٣].

المطلب الثاني
وضع العداوة بين إبليس وذريته وآدم وذريته

نقل ابن القيم عن الزمخشري أن معنى ﴿ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه: ١٢٣] ما عليه الناس من التعادي والتباغض، وتضليل بعضهم لبعض.

وضعف ابن القيم هذا القول، والذي رآه «أن العداوة التي ذكرها الله إنما هي بين آدم وإبليس وذريتهما، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر:٦].

وأما آدم وزوجه فإن الله سبحانه أخبر في كتابه أنه خلقها ليسكن إليها، وقال سبحانه: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً ﴾ [الروم:٢١] فهو سبحانه جعل المودة بين الرجل وزوجه، وجعل العداوة بين آدم وإبليس وذريتهما.

ويدل عليه - أيضاً - عودة الضمير إليهم بلفظ الجمع، وقد تقدم ذكر آدم وزوجه وإبليس في قوله: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة:٣٦]» [مفتاح دار السعادة: ١٣٦].

وقال ابن القيم أيضاً: «جعله العداوة بين آدم وزوجه وإبليس، ولابد أن يكون إبليس داخلاً في حكم هذه العداوة قطعاً، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ [طه:١١٧]، وقال لذريته: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر:٦] » [مفتاح دار السعادة: ١٣٧].

وهذا العدو – كما يقول ابن القيم – عداوته شديدة، وفي ذلك يقول: «ابتلى الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين، صاحبه ينام وهو لا ينام عنه، ويغفل وهو لا يغفل عنه، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه، يبذل جهده في معاداته بكل حال، ولا يدع أمراً يكيده به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله، ويستعين عليه ببني جنسه، من شياطين الإنس وغيرهم من شياطين الجن، وقد نصب له الحبائل، وبغى له الغوائل، ومدّ حوله الأشراك، ونصب له الفخاخ والشباك.

وقال لأعوانه: دونكم عدوكم وعدو أبيكم لا يفوتكم، ولا يكون حظه الجنة وحظكم النار، ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة، وقد علمتم أن ما جرى عليّ وعليكم من الخزي واللعن والإبعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله، فابذلوا جهدكم أن يكونوا شركاءنا في هذه البلية، إذ قد فاتنا شركة صالحيهم في الجنة» [الجواب الكافي: ص١٤١].

المطلب الثالث

هجوم الشيطان على الإنسان في إغوائه له

طرد الله – تبارك وتعالى – الشيطان من جنته ورحمته لرفضه السجود لآدم، ثم انظره إلى يوم الدين، فقال عدو الله مبيناً منهجه الذي سيسلكه في

إغوائه بني آدم: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٦-١٧].

قال جمهور المفسرين والنحاة: التقدير: لأقعدنّ لهم على صراطك، والظاهر: أن الفعل مضمر، فإن القاعد على الشيء ملازم له، فكأنه قال: لأزمنّه، ولأرصدنه، ولأعوِّجنه، ونحو ذلك.

قال ابن عباس: «دينك الواضح» وقال ابن مسعود: «هو كتاب الله» وقال جابر: «هو الإسلام» وقال مجاهد: «هو الحق» .

والجميع عبارات عن معنى واحد، وهو الطريق الموصل إلى الله تعالى، وقد تقدم حديث سبْرة بن الفاكه: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه كلها» فما من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالك.

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأعراف:١٧] قال ابن عباس، في رواية عطية عنه «من قبل الدنيا» وفي رواية عليّ عنه «أشككهم في آخرتهم» .

وكذلك قال الحسن: «من قبل الآخرة، تكذيباً بالبعث والجنة والنار» .

وقال مجاهد: «من بين أيديهم: من حيث يبصرون» .

(ومن خلفهم) قال ابن عباس: «أرغبهم في دنياهم» وقال الحسن: «من قبل دنياهم أزيّنها لهم وأشهّيها لهم» .

وعن ابن عباس رواية أخرى «من قبل الآخرة» .

وقال أبو صالح: «أشككهم في الآخرة وأباعدها عليهم» . وقال مجاهد أيضاً: «من حيث لا يبصرون» .

(وعن أيمانهم) قال ابن عباس: «أشبه عليهم أمر دينهم» . وقال أبو صالح: «الحق أشككهم فيه» وعن ابن عباس أيضاً «من قبل حسناتهم» :

قال الحسن: «من قبل الحسنات أثبطهم عنها» .

وقال أبو صالح أيضاً: «من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم: أنفّقه عليهم وأرغّبهم فيه» .

وقال الحسن: « (وعن شمائلهم) السيئات يأمرهم بها، ويحثهم عليها، ويزينها في أعينهم» .

وصح عن ابن عباس ﷺ أنه قال: «ولم يقل من فوقهم لأنه علم أن الله من فوقهم» .

قال الشعبي: «فالله عز وجل أنزل الرحمة عليهم من فوقهم» .

وقال قتادة: «أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله» .

قال الواحدي: وقول من قال: الأيمان كناية عن الحسنات، والشمائل كناية عن السيئات؛ حسن، لأن العرب تقول: اجعلني في يمينك، ولا تجعلني في شمالك، تريد: اجعلني من المقدمين عندك.

وحكى الأزهري عن بعضهم في هذه الآية «لأغوينهم حتى يكذبوا بما تقدم من أمور الأمم السالفة، ومن خلفهم بأمر البعث، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم: أي لأضلنهم فيما يعلمون، لأن الكسب يقال فيه: ذلك بما

كسبت يداك، وإن كانت اليدان لم تجنيا شيئاً، لأنهما الأصل في التصرف، فجعلتا مثلاً لجميع ما يُعمل بغيرهما» .

وقال آخرون - منهم أبو إسحاق، والزمخشري - واللفظ لأبي إسحاق: «ذكر هذه الوجوه للمبالغة في التوكيد، أي: لآتينهم من جميع الجهات، والحقيقة - والله أعلم - أتصرف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم» .

وقال الزمخشري: «ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب، وهذا مثل لوسوسته إليهم، وتسويله ما أمكنه وقدر عليه، كقوله ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء:٦٤] ».

وهذا يوافق ما حكيناه عن قتادة: «أتاك من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك» وهذا القول أعم فائدة، ولا يناقض ما قال السلف، فإن ذلك على جهة التمثيل لا التعيين.

قال شقيق: «ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد: من بيدي يديّ، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي؛ فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم، فأقرأ ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ [طه:٨٢] وأما من خلفي فيخوفني الضيّعة على من أخلّفه، فأقرأ ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود:٦] ومن قِبَل يميني، يأتيني من قبل النساء، فأقرأ ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف:١٢٨] ومن قبل شمالي فيأتيني من قِبَل الشهوات، فأقرأ ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ:٥٤] » .

قلت: السبل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه، وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأي سبيل

سلكها من هذه وجد الشيطان عليها رصداً له، فإن سلكها في طاعة وجده عليها يثبطه عنها ويقطعه، أو يعوقه ويثبطه، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملاً له وخادماً ومعيناً وممنياً، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك.

ومما يشهد لصحة أقوال السلف قوله تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [فصلت:٢٥].

قال الكلبي: «ألزمناهم قرناء من الشياطين» وقال مقاتل: «هيأنا لهم قرناء من الشياطين».

وقال ابن عباس: «ما بين أيديهم من أمر الدنيا، وما خلفهم من أمر الآخرة» .

والمعنى زينوا لهم الدنيا حتى آثروها، ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة والإعراض عنها.

وقال الكلبي: «زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة: أنه لا جنة، ولا نار، ولا بعث؛ وما خلفهم من أمر الدنيا: ما هم عليه من الضلالة» وهذا اختيار الفراء.

وقال ابن زيد: «زينوا لهم ما مضى من خبث أعمالهم، وما يستقبلون منها» والمعنى على هذا زينوا لهم ما عملوه فلم يتوبوا منه وما يعزمون عليه فلا ينوون تركه.

فقول عدو الله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ [الأعراف:١٧] يتناول الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾

[الأعراف:١٧] فإن ملك الحسنات عن اليمين يستحث صاحبه على فعل الخير، فيأتيه الشيطان من هذه الجهة يثبطه عنه، وإن ملك السيئات عن الشمال ينهاه عنها، فيأتيه الشطان من تلك الجهة يحرِّضه عليها، وهذا يُفصِّل ما أجمله في قوله ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٢] وقال تعالى: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ۞ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۞ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۞ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء:١١٧-١٢٠]. قال الضحاك: «مفروضاً، أي: معلوماً» . وقال الزجاج: «أي نصيباً افترضته على نفسي» . قال الفراء: «يعني ما جُعل له عليه السبيل من الناس، فهو كالمفروض» .

قلت: حقيقة الفرض هو التقدير. والمعنى: أن من اتبع الشيطان وأطاعه فهو من نصيبه المفروض وحظّه المقسوم، فكل من أطاع عدو الله فهو من مفروضه، فالناس قسمان: نصيب الشيطان ومفروضه، وأولياء الله وحزبه وخاصته.

وقوله: «ولأضلنهم» يعني عن الحق «ولأمنينهم» قال ابن عباس: «يريد تعويق التوبة وتأخيرها» .

وقال الكلبي: «أمنِّيهم أنه لا جنة، ولا نار ولا بعث» .

وقال الزجاج: «أجمع لهم من الإضلال أن أوهمهم أنهم ينالون مع ذلك حظهم من الآخرة» .

وقيل: لأمنينهم ركوب الأهواء الداعية إلى العصيان والبدع.

وقيل: أمنيهم طول البقاء في نعيم الدنيا، فأطيل لهم الأمل ليؤثروها على الآخرة.

وقوله: «ولآمرنهم فليبتّكنّ آذان الأنعام» «البَتْك» القطع، وهو في هذا الموضع: قطع آذان البحيرة، عن جميع المفسرين، ومن ههنا كره جمهور أهل العلم تثقيب أذني الطفل للحلق، ورخّص بعضهم في ذلك للأنثى، دون الذكر لحاجتها إلى الحلية، واحتجوا بحديث أم زرع، وفيه «أناس من حُليّ أذني» وقال النبي ﷺ: «كنت لكِ كأبي زرع لأم زرع» ونص أحمد رحمه الله على جواز ذلك في حق البنت وكراهته في حق الصبي.

وقوله: ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:١١٩] قال ابن عباس «يريد دين الله» وهو قول إبراهيم، ومجاهد، والحسن،والضحاك، وقتادة، والسُّدّي، وسعيد بن المسيّب، وسعيد بن جُبير.

ومعنى ذلك: هو أن الله تعالى فطر عباده على الفطرة المستقيمة، وهي ملة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ ﴾ [الروم:٣٠-٣١] ولهذا قال ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانه، كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء، فهل تحسون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها»؟ ثم قرأ أبو هريرة ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا... ﴾ الآية متفق عليه.

فجمع ﷺ بين الأمرين: تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير، وتغيير الخلقة بالجَدْع، وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لابد أن يُغيِّرهما، فغيَّر فطرة الله بالكفر، وهو تغيير الخلقة التي خُلقوا عليها وغيّر الصورة بالجَدْع والبَتْك، فغيّر الفطرة إلى الشرك، والخِلْقة إلى البَتْك والقطع، فهذا تغيير خلقة الروح، وهذا تغيير خلقة الصورة.

ثم قال: «يعدهم ويمنيهم» فوعده: ما يصل إلى قلب الإنسان، نحو: سيطول عمرك، وتنال من الدنيا لذّتك، وستعلو على أقرانك، وتظفر بأعدائك، والدنيا دُوَل ستكون لك كما كانت لغيرك، يطول أمله، ويعده بالحسنى على شِركه ومعاصيه، ويُمنِّيه الأماني الكاذبة على اختلاف وجوهها، والفرق بين وعده وتمنيته أنه يعد الباطل، ويُمنِّي المحال، والنفس المهينة التي لا قَدْر لها تغتذي بوعده وتمنيته، كما قال القائل:

مُنىً إن تكن حَقّاً تكنْ أحْسَنَ المُنَى ... وإلا فقد عِشْنا بها زَمَناً رَغْداً

فالنفس المبطلة الخسيسة تلتذ بالأماني الباطلة والوعود الكاذبة، وتفرح بها، كما يفرح بها النساء والصبيان ويتحركون لها، فالأقوال الباطلة مصدرها وَعْد الشيطان وتمْنيته، فإن الشيطان يمني أصحابها الظفر بالحق وإدراكه، ويعدهم الوصول إليه من غير طريقه، فكل مبطل فله نصيب من قوله: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء:١٢٠] .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾ [البقرة:٢٦٨]، قيل: (يعدكم الفقر) يخوّفكم به، يقول: إن أنفقتم أموالكم افتقرتم (ويأمركم بالفحشاء) قالوا: هي البخل

في هذا الموضع خاصة، ويُذكر عن مقاتل والكلبي «كل فحشاء في القرآن فهي الزنا إلا في هذا الموضع فإنها البخل» .

والصواب: أن الفحشاء على بابها، وهي كل فاحشة، فهي صفة لموصوف محذوف، فحذف موصوفها إرادة للعموم: أي بالفعْلة الفحشاء والخلّة الفحشاء، ومن جملتها البخل، فذكر سبحانه وَعْد الشيطان وأمْرَه: يأمرهم بالشر ويخوفهم من فعل الخير، وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان، فإنه إذا خوّفه من فعل الخير تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزيّنها له ارتكبها، وسمى سبحانه تخويفه وعْد الانتظار الذي خوفه إياه كما ينتظر الموعود ما وعد به، ثم ذكر سبحانه وعده على طاعته، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهي المغفرة والفضل، فالمغفرة: وقاية الشر، والفضل: إعطاء الخير، وفي الحديث المشهور (إن للملك بقلب ابن آدم لَمّة، وللشيطان لَمّة، فلمّة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد، ولَمّة الشيطان: إيعاد بالشر، وتكذيب بالوعد، ثم قرأ ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ... ﴾) الآية [البقرة:٢٦٨].

فالملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره، وآخر بضده، ومنهم من يكون زمنه نهاراً كله، وآخر بضده، نستعيذ بالله تعالى من شر الشيطان» [إغاثة اللهفان: ١/ ١٠٢-١٠٨].

المطلب الرابع

محاولة الشيطان الهيمنة على قلب الإنسان

ذكر ابن القيم رحمه الله أن قلب الإنسان هو الموضع الذي يقاتل عليه الشيطان للوصول إليه والتأثير فيه، لأنه بمثابة الملك لبقية الأعضاء، وفي

ذلك يقول: «ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، قال النبي ﷺ : «ألا وإن في الجسد مُضْغَةً إذا صلحت صلح الجسد كله» [البخاري: ٢٠٥١، مسلم: ١٥٩٩]، فهو ملكها، وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيّته، وهو المسؤول عنها كلها، لأن كل راعٍ مسؤول عن رعيته: كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون، والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون.

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزيّن له من الأحوال والأعمال ما يصده به عن الطريق، وأمدّه من أسباب الغيّ بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق، فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى، والتعرض لأسباب مرضاته، والتجاء القلب إليه، وإقباله عليه في حركاته وسكناته، والتحقق بذلّ العبودية الذي هو أولى ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول في ضمان ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الإسراء:٦٥]. فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين.

والقلب الغافل - كما يقول ابن القيم -: «مأوى الشيطان؛ فإنه وسواس خنّاس، وقد التقم قلب الغافل يقرأ عليه أنواع الوساوس

والخيالات الباطلة، فإذا تذكر وذكر الله انجمع، وانضمّ، وخنس، وتضاءل لذكر الله، فهو دائماً بين الوسوسة والخنس.

وقال عروة بن رُويم: إن المسيح عليه السلام سأل ربّه أن يُريه موضع الشيطان من ابن آدم [ذلك]؛ فجلّى له فإذا رأسه رأس الحيّة، واضعٌ رأسه على ثمرة القلب، فإذا ذكر العبد ربّه خنس، وإذا لم يذكر وضع رأسه على ثمرة قلبه: فمنّاه وحدّثه.

وقد رُوي في هذا المعنى حديث مرفوع؛ فهو دائماً يترقب غفلة العبيد، فيبذر في قلبه بذر الأماني والشهوات والخيالات الباطلة، فيثمر كل حنظل وكل شوك وكل بلاء، ولا يزال يمده بسقيه حتى يُغطّي القلب ويُعميه» [مفتاح دار السعادة: ١/ ٣٧٤-٣٧٥].

وتحدث ابن القيم في موضع آخر عن فتنة الشيطان للقلوب، وأورد حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تُعرَض الفتنُ على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً. فأي قلب أشرِبها نُكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نُكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تعود القلوب على قلبين: قلب أسود مرباداً كالكوز مُجَخِّياً. لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض، فلا تَضُرُّه فتنة ما دامت السموات والأرض» [مسلم: ١٤٤] فشبه عرض الفتن على القلوب شيئاً فشيئاً كعرض عيدان الحصير، وهي طاقاتها شيئاً فشيئاً، وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين: قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها، كما يشرب السفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسودّ وينتكس، وهو معنى قوله: «كالكوز مجخياً» أي مكبوباً منكوساً، فإذا اسودّ

وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران متراميان به إلى الهلاك: أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر، فلا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والسنّة بدعة والبدعة سنّة، والحق باطلاً والباطل حقاً، الثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺ ، وانقياده للهوى واتباعه له.

وقلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها، فازداد نوره وإشراقه وقوته.

والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات، فتن الغي والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل. فالأولى توجب فساد القصد والإرادة، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد» [إغاثة اللهفان: ١/ ١٠-١٢].

المطلب الخامس

دلالة الشيطان جنده على طريقة إضلال الإنسان

تتبع ابن القيم الكيفية التي يدل الشيطان جنده عليها لإضلال العباد، ودلّنا عليها بأسلوب سهل بين واضح، وقد وجد أن بداية المعركة تبدأ من النفس، «فقال لأعوانه: ادخلوا عليها من مرادها، وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها، فعدوها به، ومنوها إياه، وانقشوا صورة المحبوب فيها في يقظتها ومناها، فإذا اطمأنت إليه، وسكنت عنده فاطرحوا عليه كلاليب الشهوة وخطاطيفها، ثم جروها بها إليكم، فإذا خامرت على القلب، وصارت معكم عليه ملكتم ثغر العين والأذن واللسان والفم واليد والرجل، فرابطوا على هذه الثغور كل المرابطة، فمتى دخلتم منها إلى القلب فهو

قتيل أو أسير، أو جريح مثخن بالجراحات، ولا تخلوا هذه الثغور، ولا تمكنوا سرية تدخل منها إلى القلب فتخرجكم منه.

وإن غلبتم فاجتهدوا في إضعاف السرية ووهنها، حتى لا تصل إلى القلب، فإن وصلت إليه وصلت ضعيفة لا تغني عنه شيئاً.

فإذا استوليتم على هذه الثغور، فامنعوا ثغر العين أن يكون نظره اعتباراً، بل اجعلوا نظره تفرجاً واستحساناً وتلهياً، فإن استرق في نظرة عبرة، فأفسدوها عليه بنظرة الغفلة، والاستحسان والشهوة، فإنها أقرب إليه وأعلق بنفسه، وأخف عليه.

ودونكم ثغر العين فإن منه من تنالون بغيتكم. فإني ما أفسدت بني آدم بشيء مثل النظر، فإني أبذر به في القلب بذر الشهوة، ثم أسقيه بماء الأمنية، ثم لا أزال أعده وأمنيه حتى أقوي عزيمته، وأقوده بزمام الشهوة إلى الانخلاع من العصمة، فلا تهملوا أمر هذا الثغر، وأفسدوه بحسب استطاعتكم، وهونوا عليه أمره، وقولوا له: مقدار نظرة تدعوك إلى تسبيح الخالق والرازق البديع، والتأمل والتجمل صفته، وحُسْن هذه الصورة إنما خلقت ليستدل بها الناظر عليه، وما خلق الله لك العينين سدى، وما خلق الله هذه الصورة ليحجبها عن النظر.

وإن ظفرتم به قليل العلم فاسد العقل، فقولوا له: هذه الصورة مظهر من مظاهر الحق، ومجلى من مجاليه، فادعوه إلى القول بالاتحاد، فإن لم يقبل فالقول بالحلول العام والخاص، ولا تقنعوا منه بدون ذلك، فإنه يصير به من إخوان النصارى، فمروه حينئذ بالعفة والصيانة، والعبادة والزهد في الدنيا، واصطادوا عليه وبه الجمال. فهذا من أقرب خلفائي، وأكبر جندي، بل أنا من جنده وأعوانه.

ثم امنعوا ثغر الأذن أن يدخل عليه ما يفسد عليكم الأمر، فاجتهدوا أن لا تدخلوا منه إلا الباطل، فإنه خفيف على النفس، تستحليه وتستملحه، وتخيروا له أعذب الألفاظ وأسحرها للألباب، وامزجوه بما تهوى النفس مزجاً، وألقوا الكلمة، فإن رأيتم منه إصغاء إليها فزيدوه بأخواتها، فكلما صادفتم منه استحسان شيء فالهجوا له بذكره.

وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ أو كلام النصحاء، فإن غلبتم على ذلك، ودخل شيء من ذلك فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكر فيه والاتعاظ به، إما بإدخال ضده عليه، وإما بتهويل ذلك وتعظيمه، وإفهامه أن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه، فلا سبيل لها إليه، وهو حمل ثقيل عليها لا تستقبل به ونحو ذلك. وإما بإرخاصه على النفوس، وأن الاشتغال ينبغي أن يكون بما هو أعلى عند الناس وأعز عليهم، وأغرب عندهم وزبونه أكثر، وأما الحق فهو مهجور، والقائل به معرض نفسه للعدوان، والربح بين الناس أولى بالإيثار ونحو ذلك، فيدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله، ويخف عليه، ويخرجون له الحق في كل قالب يكرهه ويثقل عليه.

والمقصود: أن الشيطان قد لزم ثغر الأذن أن يدخل فيها ما يضر العبد، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه، وإن دخله بغير اختياره أفسده عليه.

ثم يقول: قوموا على ثغر اللسان، فإنه الثغر الأعظم، وهو قبالة الملك فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه، وامنعوه أن يجري عليه شيء مما ينفعه من ذكر الله واستغفاره وتلاوة كتابه، ونصيحة عباده، أو التكلم بالعلم النافع، ويكون لكم في هذا الثغر أثران عظيمان، لا تبالون بأيهما ظفرتم:

أحدهما: التكلم بالباطل، فإنما المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم، ومن أكبر جندكم وأعوانكم.

الثاني: السكوت عن الحق،فإن الساكت عن الحق أخ لكم أخرس كما أن الأول أخ لكم ناطق، وربما كان الأخ الثاني أنفع إخوانكم لكم، أما سمعتم قول الناصح: «المتكلم بالباطل شيطان ناطق، والساكت عن الحق شيطان أخرس؟» .

فالرباط الرباط على هذه الثغر أن يتكلم بحق أو يمسك عن باطل، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق، وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق.

واعلموا يا بني أن ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بني آدم، وأكبهم منه على مناخرهم في النار، فكم لي من قتيل وأسير وجريح، أخذته من هذا الثغر.

وأوصيكم بوصية فاحفظوها: لينطق أحدكم على لسان أخيه من الإنس بالكلمة، ويكون الآخر على لسان السامع، فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها، ويطلب من أخيه إعادتها، وكونوا أعواناً على الإنس بكل طريق، وادخلوا عليهم من كل باب، واقعدوا لهم كل مرصد، أما سمعتم قسمي الذي أقسمت به لربهم حيث قلت: ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٦-١٧] أما تروني قد قعدت لابن آدم بطرقه كلها، فلا يفوتني من طريق إلا قعدت له من طريق غيره، حتى أصيب منه حاجتي أو بعضها؟ وقد حذرهم ذلك رسول الله ﷺ وقال لهم: «إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها، قصد له بطريق الإسلام، فقال له: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فخالفه وأسلم.

فقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك فخالفه وهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: أتجاهد فتقتل ويقسم المال وتنكح الزوجة؟ فخالفه وجاهد» [قال محقق الجواب الكافي في تخريجه: اخرجه احمد من حديث سبرة بن أبي فاكه ٣/ ٤٨٣، والنسائي في الجهاد باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد ٦/ ٢١-٢٢، وهو حديث صحيح. وانظر صحيح الجامع الصغير رقم ١٦٥٢]. فهكذا فاقعدوا لهم بكل طرق الخير. فإذا أراد أحدهم أن يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة، وقولوا له في نفسه: أتخرج المال وتبقى مثل هذا السائل، وتصير بمنزلته أنت وهو سواء؟ أوَ ما سمعتم ما ألقيته على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه فقال: أموالنا إذا أعطيناكموها صرنا مثلكم.

واقعدوا له بطريق الحج، فقولوا له: طريقه مخوفة مشقة، يتعرض سالكها لتلف النفس والمال، وهكذا فاقعدوا له على سائر طرق الخير بالتنفير منها وذكر صعوباتها وآفاتها، ثم اقعدوا لهم على طريق المعاصي فحسنوها في عين بني آدم، وفي قلوبهم، واجعلوا أكبر أعوانكم على ذلك النساء، فمن أبوابهن فادخلوا عليهم وزيّنوها فنِعْم العون هن لكم.

ثم الزموا ثغر الأيدي والأرجل فامنعوها أن تبطش بما يضركم أو تمشي فيه.

واعلموا أن أكبر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمارة، فأعينوها واستعينوا بها، وأمدّوها واستمدوا منها، وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة، فاجتهدوا في كسرها وإبطال قواها، ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع موادها عنها، فإنها إذا انقطعت موادها قويت مواد النفس الأمارة، وأطاعت لكم أعوانها فاستنزلوا القلب من حصنه،

واعزلوه عن مملكته، وولوا مكانه النفس الأمارة، فإنها لا تأمر إلا بما تهوونه وتحبونه، ولا تحكم بما تكرهونه ألبتة، ومع أنها لا تخالفكم في شيء تشيرون به عليها، بل إذا باشرتم عليها بشيء بادرت إلى فعله.

فإن أحسستم من القلب منازعة إلى مملكته، وأردتم الأمن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس الأمارة عقد النكاح فزيّنوها وجمّلوها، وأروها إياه في أحسن صورة عروس توجد، وقولوا له ذق حلاوة طعم هذا الوصال، والتمتع بهذه العروس كما ذقت طعم الحرب، وباشرت مرارة الطعن والضرب، ثم وازن بين لذة هذه المسألة ومرارة تلك المحاربة، فدع الحرب تضع أوزارها، فليست بيوم وينقضي، وإنما هي حرب متصل بالموت، وقواك تضعف عن مداومة الحرب.

واستعينوا يا بني بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما:

أحدهما: جند الغفلة، فأغفلوا قلوب بني آدم عن الله تعالى والدار الآخرة بكل طريق، فليس لكم شيء أبلغ في تحصيل غرضكم من ذلك، فإن القلب إذا غفل عن الله تعالى تمكنتم منه ومن أعوانه.

الثاني: جند الشهوة فزيّنوها في قلوبهم، وحسنوها في أعينهم، وصولوا عليهم بهذين العسكرين، فليس لكم في بني آدم أبلغ منهما، واستعينوا على الغفلة بالشهوات، وعلى الشهوات بالغفلة، واقرنوا بين الغافلين، ثم استعينوا بهما على الذاكر، ولا يغلب واحد خمسة، فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة، وشيطان الذاكر معهم، وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم من ذكر الله ومذاكرة أمره ونهيه ودينه، ولم تقدروا على تفريقهم، فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الإنس البطالين، فقربوهم منهم، وشوشوا عليهم بهم.

وبالجملة فأعدوا للأمور أقرانها، وادخلوا على كل واحد من بني آدم من باب إرادته وشهوته، فساعدوه عليها، وكونوا له أعواناً على تحصيلها. وإن كان الله قد أمرهم بالصبر أن يصبروا لكم، ويصابروكم، ويرابطوا عليكم الثغور، فاصبروا أنتم وصابروا ورابطوا عليهم بالثغور. وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب، فلن تصطادوا بني آدم في أعظم من هذين الموطنين.

واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب، وسلطان غضبه ضعيف مقهور، فخذوا عليه طريق الشهوة، ودعوا طريق الغضب، ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أغلب، فلا تخلوا طريق الشهوة عليه، ولا تعطلوا ثغرها، فإن من لم يملك نفسه عند الغضب فإنه بالحري أن لا يملكها عند الشهوة، فزوجوا بين غضبه وشهوته. وامزجوا أحدهما بالآخر، وادعوه إلى الشهوة من باب الغضب، وإلى الغضب من طريق الشهوة، واعلموا أنه ليس لكم في بني آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين، وإنما أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة، وإنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب، فيه قطعت أرحامهم، وسفكت دماءهم، وبه قتل أحد ابني آدم أخاه.

واعلموا أن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، والشهوة نار تثور من قلبه، وإنما تطفأ النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير، فإياكم أن تمكنوا بني آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة، فإن ذلك يطفئ عنهم نار الغضب والشهوة، وقد أمرهم نبيهم بذلك وقال: «إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم من احمرار عينيه، وانتفاخ أوداجه؟ فمن أحس بذلك فليتوضأ» وقال لهم: «إنما تطفأ النار بالماء» وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليك بالصبر والصلاة، فحولوا بينهم وبين ذلك، وأنسوهم إياهم

واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب، وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاها: الغفلة واتباع الهوى وأعظم أسلحتهم فيكم، وآمن حصونهم: ذكر الله ومخالفة الهوى. فإذا رأيتم الرجل مخالفاً لهواه فاهربوا من ظله، ولا تدنوا منه» [الجواب الكافي: ١٤٣-١٥٠].

المطلب السادس

طرائق الشيطان في صيده الإنسان

الشيطان مخلوق ذكي سلطه الحق تبارك وتعالى بحكمته لإضلال العباد، «وهو - كما يقول ابن القيم - عالِم بطرق هلاك الإنسان وأسباب الشر الذي يُلقيه فيه متفنّناً فيها، خبيراً بها، حريصاً عليها، لا يفتر عنه يقظة ولا مناماً، ولابد له من واحدة من ست ينالها منه:

إحداها: وهي غاية مراده منه: أن يحول بينه وبين العلم والإيمان، فيلقيه في الكفر؛ فإذا ظفر بذلك فرغ منه واستراح.

فإن فاتته هذه وهُدي للإسلام حرص على تلو الكفر، وهي البدعة، وهي أحبّ إليه من المعصية؛ فإن المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يتاب منها؛ لأن صاحبها يرى أنه على هدىً.

وفي بعض الآثار: يقول إبليس: أهلكت بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار، وبلا إله إلا الله، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الأهواء، فهم يذنبون ولا يتوبون، لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

فإذا ظفر منه بهذه صيّره من رُعاته وأمرائه.

فإن أعجزته ألقاه في الثالثة؛ وهي الكبائر، فإن أعجزته ألقاه في اللمم؛ وهي الرابعة، وهي الصغائر.

فإن أعجزته شغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليُرْبِح عليه الذي بينهما؛ وهي الخامسة.

فإن أعجزه ذلك صار إلى السادسة؛ وهي تسليط حزبه عليه يؤذونه ويشتمونه، ويبهتونه ويرمونه بالعظائم؛ ليحزنه ويشغل قلبه عن العلم والإرادة وسائر أعماله.

فكيف يمكن أن يحترز منه من لا علم له بهذه الأمور، ولا بعدوّه، ولا بما يحصّنه منه؟ فإنه لا ينجو من عدوّه إلا من عرف طريقه التي يأتيه منها وجيشه الذي يستعين به عليه، وعرف مداخله ومخارجه، وكيفية محاربته، وبأي شيء يحاربه، وبماذا يُداوي جراحته، وبأي شيء يستمد القوة لقتاله ودفعه؟! .

وهذا كله لا يحصل إلا بالعلم، فالجاهل في غفلة وعمىً عن هذا الأمر العظيم والخطب الجسيم» [مفتاح دار السعادة: ١/ ٣٧٢-٣٧٣].

العقبات السبع الكبار التي يصطاد الشيطان عندها الإنسان :

والطرائق الست السابقة التي يسلكها الشيطان في إضلاله الإنسان هذّبها ابن القيم ورتّبها وزادها، فأصبحت سبعاً، وفي ذلك يقول: «الشيطان يريد أن يظفر في عقبة من سبع عقبات، بعضها أصعب من بعض، لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها.

العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه، فإنه إن ظفر به في هذه العقبة، بردت نار عداوته واستراح، فإن اقتحم هذه العقبة، ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان طلبه على:

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة، إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين، التي لا يقبل الله منها شيئاً. والبدعتان في الغالب متلازمتان. قلّ أن تنفك إحداهما عن الأخرى. كما قال بعضهم: تزوّجت بدعة الأقوال ببدعة الأعمال، فاشتغل الزوجان بالعرس، فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيثون في بلاد الإسلام، تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى.

وقال شيخنا: تزوجت الحقيقة الكافرة، بالبدعة الفاجرة، فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة.

فإن قطع هذه العقبة، وخلص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان. وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب! فإن سمحت به نصب له أهل البدع الحبائل، وبغوه الغوائل، وقالوا: مبتدع محدث.

فإذا وفّقه الله لقطع هذه العقبة، طلبه على:

العقبة الثالثة: وهي عقبة الكبائر. فإن ظفر به فيها، زيّنها له، وحسّنها في عينه، وسوّف به، وفتح له باب الإرجاء، وقال له: الإيمان هو نفس التصديق. فلا تقدح فيه الأعمال[1]، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمةً طالما أهلك بها الخلق، وهي قوله: «لا يضرّ مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع

---

(١) يعني أعمال الفسوق والعصيان. والمعنى المراد: أن الشيطان يقول له - عند فتح باب الإرجاء - إن الإيمان هو نفس التصديق، فلا تقدح فيه الأعمال السيئة والمعاصي. وهذا وما بعده هو معنى الإرجاء الذي هو من شر البدع التي أفسدت الدين. الفقي.

مع الشرك حسنة» والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه. لمناقضتها الدين. ودفعها لما بعث الله به رسوله. وصاحبُها لا يتوب منها، ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم، ومعاداة صريح السنّة، ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنّة. وتولية من عزله الله ورسوله، وعزل من ولاّه الله ورسوله. واعتبار ما ردّه الله ورسوله، ورد ما اعتبره. وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه، وإثبات ما نفاه، ونفي ما أثبته، وتكذيب الصادق، وتصديق الكاذب، ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق بجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق على القلوب، وطلب العِوَج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدين جملة.

فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخ صاحبُها من الدين كما تنسل الشعرة من العجين، فمفاسد البدع لا يقف عليها إلا أرباب البصائر، والعميان ضالّون في ظلمة العمى ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور:٤٠].

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها، طلبه على:

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر. فكالَ له منها بالقُفْزان، وقال: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم، أوَ ما علمت بأنها تُكفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات، ولا يزال يُهوّن عليه أمرها، حتى يصرّ عليها، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه، فالإصرار على الذنب أقبح منه، ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار، ولا صغيرة مع

الإصرار، وقد قال ﷺ : «إياكم ومحقّرات الذنوب، ثم ضرب لذلك مثلاً بقوم نزلوا بفلاة من الأرض، فأعوزهم الحطب، فجعل هذا يجيء بعود، وهذا بعود، حتى جمعوا حطباً كثيراً، فأوقدوا ناراً، وأنضجوا خُبزتهم. فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد، وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه» [عزاه محقق الكتاب إلى أحمد بإسناد جيد، وله شاهدان عند أحمد وغيره].

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار. وأتبع السيئة الحسنة. طلبه على:

العقبة الخامسة: وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها، إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات، وأقل ما ينال منه: تفويته الأرباح، والمكاسب العظيمة، والمنازل العالية، ولو عرف السعر، لما فوّت على نفسه شيئاً من القربات، ولكنه جاهل بالسعر.

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وقلة المقام على الميناء، وخطر التجارة، وكرم المشتري، وقدر ما يعوض به التجار، فبخل بأوقاته، وضنّ بأنفاسه، أن تذهب في غير ربح، طلبه العدو على:

العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، فأمره بها، وحسّنها في عينه، وزينها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسباً وربحاً، لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع بتخسيره كماله وفضله، ودرجاته

العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، والمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضى له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول.

العقبة السابعة: فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لابد منها. ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه، وأكرم الخلق عليه، وهي عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى، باليد واللسان والقلب، على حسب مرتبته في الخير، فكلما علت مرتبته، أجلب عليه العدو بخيله ورجله، وظاهر عليه بجنده، وسلّط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط، وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها، فإنه كلما جدّ في الاستقامة والدعوة إلى الله، والقيام له بأمره، جد العدو في إغراء السفهاء به، فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب، وأخذ في محاربة العدو لله وبالله، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين. وهي تسمى عبودية المراغمة، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة، ولا شيء أحب إلى الله من مُراغمة وليّه لعدوه، وإغاظته له. وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه» [مدارج السالكين: ١/ ٢٥٤-٢٥٨].

المطلب السابع

وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن

كان بعض أهل الجاهلية يقوم بأعمال تزيد الشياطين رهقاً لبني آدم، قال ابن القيم: «أخبر الله تعالى في كتابه عمّن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغياناً ورهقاً، فقال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ

ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ﴾ [الجن:٦]، جاء في التفسير: أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فيبيت في أمن وجوار منهم، حتى يصبح، أي: فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقاً أي طغياناً، وإثماً وشراً، يقولون: سدنا الإنس والجن.

والرهق في كلام العرب: الإثم وغشيان المحارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشياناً لما كان محظوراً من الكبر والتعاظم فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن» [بدائع الفوائد: ٢/ ١٧٤].

المطلب الثامن

ذم الرحمن من اتبع هدى الشيطان من بني آدم

مما يعاب به بنو آدم أن الله أمر الملائكة وفيهم إبليس بالسجود لآدم عليه السلام ، فأبى إبليس ذلك فطرده الله من رحمته، وأهبطه من السماء، أفيلق بعد ذلك أن يتخذه بنو آدم ولياً من دون الله، وهو العدو الأول والأكبر لنا، وقد أورد ابن القيم قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾ [الكهف:٥٠] .

وعقب ابن القيم رحمه الله تعالى على هذه الآية قائلاً: «فتأمل ما تحت هذا الخطاب الذي يسلب الأرواح حلاوةً وعقاباً وجلالةً وتهديداً كيف صدره بإخبارنا أنه أمر إبليس بالسجود لأبينا فأبى ذلك، فطرده ولعنه وعاداه من أجل إبائه عن السجود لأبينا، ثم أنتم توالونه من دوني، وقد

لعنته وطردته إذ لم يسجد لأبيكم، وجعلته عدواً لكم ولأبيكم، فواليتموه وتركتموني، أفليس هذا من أعظم الغبن وأشد الحسرة عليكم.

ويوم القيامة يقول تعالى: أليس عدلاً مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا، فليعلمن أولياء الشيطان كيف حالهم يوم القيامة إذا ذهبوا مع أوليائهم، وبقى أولياء الرحمن لم يذهبوا مع أحد، فيتجلى لهم ويقول: ألا تذهبون حيث ذهب الناس، فيقولون: فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم، وإنما ننتظر ربنا الذي كنا نتولاه ونعبده، فيقول: هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، إنه لا مثل له، فيتجلى لهم، ويكشف عن ساق، فيخرون له سجّداً، فيا قرة عيون أوليائه بتلك الموالاة، ويا فرحهم إذا ذهب الناس مع أوليائهم، وبقوا مع مولاهم الحق، فسيعلم المشركون به الصادون عن سبيله أنهم ما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون، ولا تستطل هذا البساط فما أحوج القلوب إلى معرفته وتعقله ونزولها منه منازلها في الدنيا لتنزل في جوار ربها في الآخرة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً» [بدائع الفوائد: ٢/ ٢١٣].

المبحث السابع

تلاعب الشيطان ببني آدم

المطلب الأول

الشيطان القرين للإنسان

اقتضت حكمة العليم العلاّم أن يقترن بكل واحد من بني آدم شيطان، وقد أورد ابن القيم رحمه الله تعالى: « قوله سبحانه: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧] فأخبر سبحانه أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين وضلاله به، إنما كان بسبب إعراضه وعشْوِهِ عن ذكره الذي أنزله على رسوله، فكان عقوبة هذا الإعراض أن قيّض له شيطاناً يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه، وهو يحسب أنه مهتد، حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه، وعاين هلاكه وإفلاسه، قال: ﴿ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ [الزخرف:٣٨].

وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله فلابد أن يقول هذا يوم القيامة.

فإن قيل: فهل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى، كما قال تعالى: ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف:٣٧]؟! .

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله من الضُلاَّل الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول ﷺ، ولو ظن أنه مهتد فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى، فإذا ضل فإنما أُتي من تفريطه وإعراضه، وهذا بخلاف من كان على ضلالة لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حكم آخر، والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول» [مفتاح دار السعادة: ١/ ٢٠٨].

المطلب الثاني
تعبيد الشيطان بني آدم للمخلوقات

ذكر ابن القيم أن الشيطان تلاعب ببني آدم، فعبدهم للحيوانات، كالخيل والبقر والشجر والحجر، وفي ذلك يقول ابن القيم: «فطائفة عبدت الخيل، وطائفة عبدت البقر، وطائفة عبدت البشر الأحياء والأموات، وطائفة تعبد الشجر، وطائفة تعبد الجن، كما قال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ:٤٠-٤١] .

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۞ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس:٦٠-٦١] .

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:١٢٨] يعني قد استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم» [إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٣٥-٢٣٦].

المطلب الثالث

تعبيد الشيطان الإنسان لنفسه

يرى ابن القيم رحمه الله تعالى: «أنه ما عبد من عبد من دون الله إلا الشيطان، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس:٦٠-٦١] ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ:٤٠-٤١] فالشيطان يدعو المشركين إلى عبادته، ويوهمهم أنه ملك، كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب، وهي التي تخاطبهم، وتقضي لهم الحوائج، وهم على الحقيقة إنما يعبدون الشيطان، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان، فيسجد لها الكفار، فيقع سجودهم له، وكذلك عند غروبها، وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان.

فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه، ورضيها لهم وأمرهم بها، وهذا هو الشيطان الرجيم لعنة الله عليه. فلا عَبَدَ الله ولا رسوله ﷺ فيدل هذا كله على قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس:٦٠-٦١] .

فما عبد أحد من بني آدم معبوداً غير الله كائناً ما كان إلا وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له، وإشراكه به مع الله الذي هو غاية رضاء الشيطان، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ [الأنعام:١٢٨] أي إغوائهم وإضلالهم ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:١٢٨] .

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفره بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود في النار، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه. بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده عبادة إله غيره. كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله. كيف يظن بالمنفرد بالربوبية والإلهية والعظمة والإجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك، أو يرضى به؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً» [الجواب الكافي: ص٢٠٢ وراجع في هذا: إغاثة اللهفان: ٢/٢٣٨].

وأورد ابن القيم حديثاً، يذكر فيه عن الله مدى تأثير الشياطين في إضلال العباد، ففي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم مما علمني من يومي هذا، كل مالٍ نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطينُ فاجتالتهم عن دينهم، فحرّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أُنزل به سلطاناً، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربه وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب. وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك. وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء،

تقرؤه نائماً ويقظان، وإن الله أمرني أُحَرِّق قريشاً، فقلت: رب إذاً يثلغوا رأسي، فيدعوه خُبزة، قال: استخرجهم كما أخرجوك، واغزهم نغزك، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشاً نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، قال: وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال. قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زبْر له، الذين هم فيكم تبعاً لا يبغون فكيم أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع، وإن دقّ، إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك» وذكر البخل، أو الكذب «والشنظير الفحّاش» وإن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد» [مسلم:٢٨٦٥].

المطلب الرابع

بالمعاصي يأسر الشيطان الإنسان ويتجرأ عليه

ذكر ابن القيم - رحمه الله تعالى - أن «من عقوبة المعاصي أن العاصي دائماً في أسر شيطانه وسجن شهواته، وقيود هواه، فهو أسير مسجون مقيد، ولا أسير أسوأ حالاً من أسير أسره أعدى عدو له، ولا سجن أضيق من سجن الهوى، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد؟ وكيف يخطو خطوة واحدة؟ .

وإذا تقيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده، ومثل القلب مثل الطائر، كلما علا بَعُدَ عن الآفات، وكلما نزل احتوشته الآفات وفي الحديث «الشيطان ذئب الإنسان» [عزاه محقق الكتاب إلى أحمد وضعفه، وذكر أن الألباني اورده في ضعيف الجامع] وكما أن الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئاب سريعة العطب، فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولابد، وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى فهي وقاية وجنة حصينة بينه

وبين ذئبه، كما هي وقاية بينه وبين عقوبات الدنيا والآخرة، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعي كانت أسلم من الذئب، وكلما بعُدت عن الراعي كانت أقرب إلى الهلاك، فأحمى ما تكون الشاة إذا قربت من الراعي، وإنما يأخذ الذئب القاصي من الغنم، وهي أبعدهن من الراعي.

وأصل هذا كله: أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلما كان أقرب من الله بعُدت عنه الآفات، والبُعد من الله مراتب، بعضها أشد من بعض، فالغفلة تبعد العبد عن الله، وبُعد المعصية أعظم من بُعد الغفلة، وبُعد البدعة أعظم من بُعد المعصية، وبُعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله» . [التبيان: ١٢٠].

ومن عقوبة المعاصي - كما يقول ابن القيم - : «أنها تجرئ على العبد ما لم يكن يجترئ عليه من أصناف المخلوقات، فتجرئ عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتغرير، وإنسائه ما مصلحته في ذكره ومضرته في نسيانه، فتجترئ عليه الشياطين حتى تؤزه إلى معصية الله أزّاً، وتجرئ عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من الأذى في غيبته وحضوره، وتجرئ عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم قال بعض السلف: إني لأعصي الله، فأعرف ذلك في خلق امرأتي ودابتي» [التبيان: ص١٣٣].

المطلب الخامس

الضلال الذي يريده الشيطان من الإنسان

الغصن الأول

إشغال الشيطان المصلي في صلاته

تحدث ابن القيم رحمه الله - عن غيرة الشيطان إذا قام العبد يصلي بين يدي الله، فيقوم ليشغل قلبه بأمور الدنيا، فلا يفقه من صلاته شيئاً، وفي

ذلك يقول: «والعبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه، فإنه قد قام في أعظم مقام وأقربه وأغيظه للشيطان وأشده عليه، فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه، بل لا يزال به يَعده ويمنيه وينسيه، ويجلب عليه بخيله ورجله، حتى يهون عليه شأن الصلاة فيتهاون بها فيتركها. فإن عجز عن ذلك منه وعصاه العبد، وقام في ذلك المقام، أقبل عدو الله تعالى حتى يخطر بينه وبين نفسه، ويحول بينه وبين قلبه، فيذكره في الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها، حتى ربما قد نسي الشيء والحاجة وآيس منها فيذكره إياها في الصلاة ليشغل قلبه بها ويأخذه عن الله عز وجل، فيقوم فيها بلا قلب، فلا ينال من إقبال الله تعالى وكرامته وقربه ما يناله المقبل على ربه عز وجل الحاضر بقلبه في صلاته، فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه وأثقاله لم تُخفف عنه بالصلاة. فإن الصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها، وأكمل خشوعها. ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقالبه.

فهذا إذا انصرف منها وجد خفة من نفسه، وأحس بأثقال قد وضعت عنه. وجد نشاطاً وراحة وروحاً، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها، لأنها قرة عينيه ونعيم روحه وجنة قلبه ومستراحه في الدنيا، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها فيستريح بها لا منها، فالمحبون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم ﷺ : «يا بلال أرحنا بالصلاة» . ولم يقل: أرحنا منها، وقال ﷺ : «جعلت قرة عيني في الصلاة».

فمن جعلت قرة عينه في الصلاة كيف تقرّ عينه بدونها، وكيف يطيق الصبر عنها؟ فصلاة هذا الحاضر بقلبه الذي قرّة عينه في الصلاة هي التي

تصعد ولها نور وبرهان، حتى يستقبل بها الرحمن عز وجل فتقول: «حفظك الله تعالى كما حفظتني» وأما صلاة المفرط المضيع لحقوقها وحدودها وخشوعها فإنها تلف كما يلف الثوب الخَلِق ويضرب بها وجه صاحبها وتقول: «ضيعك الله كما ضيّعتني» [الوابل الصيب: ٢١-٢٢].

الغصن الثاني

أمر الشيطان العباد بتبتيك آذان الأنعام

أورد ابن القيم رحمه الله تعالى أن «الله - سبحانه - أخبر عن عدوه إبليس أنه قال: ﴿ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ [النساء:١١٩]. ثم قال: «أي، يقطعونها، وهذا يدل على أن قطع الأذن وشقها، وثقبها من أمر الشيطان، فإن البتك، وهو القطع، وثقب الأذن، قطع لها، فهذا ملحق بقطع أذن الأنعام» [تحفة المودود: ١٨٣].

وذكر أن بعض أهل العلم قاس على هذا ثقب أذن الصبية للزينة، ورده قائلاً: «هذا من أفسد القياس، فإن الذين أمرهم الشيطان به أنهم كانوا إذا ولدت الناقة خمسة أبطن، فكان البطن السادس ذكراً؛ شقوا أذن الناقة، وحرّموا ركوبها والانتفاع بها، ولم تُطرد عن ماء ولا عن مرعى؛ وقالوا: هذه بحيرة؛ فشرّع لهم الشيطان في ذلك شريعة من عنده، فأين هذا من نخس أذن الصبية، ليوضع فيها الحلية التي أباح الله لها أن تتحلى بها؟» [تحفة المودود: ١٨٤].

وقد أورد ابن القيم رحمه الله تعالى حديثين احتج بهما على جواز شق أذن الصبية دون الصبي، وفي ذلك يقول: «أما أذن البنت، فيجوز ثقبها

للزينة، نص عليه الإمام أحمد، ونص على كراهته في حق الصبي، والفرق بينهما، أن الأنثى محتاجة للحلية، فثقب الأذن مصلحة في حقها، بخلاف الصبي، وقد قال النبي ﷺ لعائشة في حديث أم زرع: «كنت لك كأبي زرع» مع قولها: أناس من حُليٍّ أذني، أي: ملأها من الحلي حتى صار ينوس فيها، أي يتحرك ويجول» [الحديث رواه البخاري: ٥١٨٩. ومسلم: ٢٤٤٨].

وفي «الصحيحين» : لما حرّض النبي ﷺ النساء على الصدقة، جعلت المرأة تُلقي خُرْصَها... » الحديث [البخاري: ٩٦٤، ومسلم: ٨٨٤]. والخُرْص: هو الحلْقة الموضوعة في الأذن، ويكفي في جوازه علم الله ورسوله بفعل الناس له وإقرارهم على ذلك، فلو كان مما يُنهى عنه لنهى القرآن أو السنّة» [تحفة المودود: ١٨٣].

المبحث الثامن
أوليـاء الشيطـان

المطلب الأول
ولاية الشيطان لأهل الشرك والذنوب والمعاصي

أورد ابن القيم رحمه الله تعالى الآية المصرحة بأن الله سبحانه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، وهي قوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۞ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۞ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ۞ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٧-٣٣].

وعقب على ذلك قائلاً: «فأخبر سبحانه أنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، وهو قوله: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف:٥٠] ، وقال تعالى في الشيطان ﴿ إِنَّمَا

سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل:١٠٠] وأخبر عنه أنه أقسم بعزة ربه أنه يُغوى عباده أجمعين، واستثنى أهل الإخلاص منهم، وأخبر سبحانه عن أولياء الشيطان: أنهم إذا فعلوا فاحشةً احتجوا بتقليد أسلافهم، وزعموا أن الله سبحانه أمرهم بها، فاتَّبعوا الظن الكاذب والهوى الباطل.

قال شيخنا (يريد شيخ الإسلام): «وفي هذا الوصف نصيب كبير لكثير من المنتسبين إلى القبلة، من الصوفية والعباد، والأمراء، والأجناد، والمتفلسفة، والمتكلمين، والعامة وغيرهم، يستحلون من الفواحش ما حرّمه الله ورسوله، ظانين أن الله أباحه، أو تقليداً لأسلافهم، وأصله العشق الذي يبغضه الله، فكثير منهم يجعله ديناً، ويرى أنه يتقرب به إلى الله، إما لزعمه أنه يُزكّي النفس ويُهذّبها، وإما لزعمه أنه يجمع بذلك قلبه على آدمي، ثم ينقله إلى عبادة الله وحده، وإما لزعمه أن الصور الجميلة مظاهر الحق ومشاهده، ويسميها «مظاهر الجمال الأحديّ» وإما لاعتقاده حلول الرب فيها، واتحاده بها، ولهذا تجد بين نُسّاك هؤلاء وفقرائهم وأمرائهم وأصحابهم توافقاً وتآلفاً على اتخاذ أنداد من دون الله يحبونهم كحب الله، إما تديُّناً، وإما شهوةً وإما جمعاً بين الأمرين. ولهذا يتآلفون ويجتمعون على السماع الشيطاني، الذي يهيج الحب المشترك، فيُهيِّج من كل قلب ما فيه من الحب» [إغاثة اللهفان: ٢/ ١٥٥-١٥٦].

المطلب الثاني

تولي أصحاب الكشوف الشيطانية للشيطان

بيّن ابن القيم رحمه الله تعالى المعنى المراد من قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ [الأنعام:١٢٨] فقال: «يعنون استمتاع كل نوع بالنوع

الآخر، فاستمتاع الجن بالإنس، طاعتهم لهم فيما يأمرونهم به: من الكفر، والفسوق، والعصيان، فإن هذا أكثر أغراض الجن من الإنس، فإذا أطاعوهم فيه فقد أعطوهم مناهم، واستمتاع الإنس بالجن: أنهم أعانوهم على معصية الله تعالى، والشرك به بكل ما يقدرون عليه: من التحسين، والتزيين، والدعاء، وقضاء كثير من حوائجهم، واستخدامهم بالسحر والعزائم، وغيرها، فأطاعهم الإنس فيما يُرضيهم: من الشرك، والفواحش، والفجور، وأطاعتهم الجن فيما يرضيهم: من التأثيرات، والإخبار ببعض المغيبات، فتمتع كل من الفريقين بالآخر.

وهذه الآية منطبقة على أصحاب الأحوال الشيطانية الذين لهم كشوف شيطانية وتأثير شيطاني، فيحسبهم الجاهل أولياء الرحمن، وإنما هم من أولياء الشيطان، أطاعوه في الإشراك، ومعصية الله، والخروج عما بعث به رسله، وأنزل به كتبه، فأطاعهم في أن خدمهم بإخبارهم بكثير من المغيبات والتأثيرات، واغترّ بهم من قلّ حظه من العلم والإيمان فوالى أعداء الله، وعادى أولياءه، وحسّن الظن بمن خرج عن سبيله وسنته، وأساء الظن بمن اتبع سُنّة الرسول، وما جاء به، ولم يدعها لأقوال المختلفين، وآراء المتحيرين، وشطحات المارقين، وترهات المتصوفين.

والبصير الذي نور الله بصيرته بنور الإيمان والمعرفة إذا عرف حقيقة ما عليه أكثر هذا الخلق، وكان ناقداً، لا يروج عليه الزّغل، تبين له أنهم داخلون تحت حكم هذه الآية، وهي منطبقة عليهم.

فالفاسق يستمتع بالشيطان، بإعانته له على أسباب فسوقه، والشيطان يستمتع به في قبوله منه، وطاعته له فيسره ذلك، ويفرح به منه.

والمشرك يستمتع به الشيطان بشركه به، وعبادته له، ويستمتع هو بالشيطان في قضاء حوائجه، وإعانته له.

ومن لم يُحط علماً بهذا لم يعلم حقيقة الإيمان والشرك، وسر امتحان الرب سبحانه كلاً من الثقلين بالآخر» [إغاثة اللهفان: ٢/ ٢٣٧-٢٣٨].

المطلب الثالث

تخويف الشيطان المؤمنين أولياءه

«يخوف الشيطان المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر؛ وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، وقد أخبرنا الله تعالى سبحانه عنه بهذا فقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥] .

المعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه. قال قتادة «يعظمهم في صدوركم، ولهذا قال: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥]، فكلما قوى إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم» [إغاثة اللهفان: ١/ ١١٠].

ومن كيد عدو الله تعالى: أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف ولا ينهونهم عن المنكر؛ وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، وقد أخبرنا الله تعالى سبحانه عنه بهذا فقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥] .

ومن مكايده أنه يسحر العقل دائماً حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله، فيزين له الفعل الذي يضره حتى يخيل إليه أنه من أنفع

الأشياء، وينفّر من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له، حتى يخيل له أنه يضره، فلا إله إلا الله. كم فتن بهذا السحر من إنسان، وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان؟ وكم جلا الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة، وشنع الحق وأخرجه في صورة مستهجنة؟ وكم بهرج من الزُيوف على الناقدين، وكم روّج من الزغل على العارفين؟ فهو الذي سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك، وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك، وزين لهم عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام، ووأد البنات، ونكاح الأمهات، ووعدهم الفوز بالجنات مع الكفر والفسوق والعصيان، وأبرز لهم الشرك في صورة التعظيم، والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه في قالب التنزيه، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلى الناس، وحُسْن الخلق معهم، والعمل بقوله: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [المائدة:١٠٥] والإعراض عما جاء به الرسول ﷺ في قالب التقليد والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم، والنفاق والإدهان في دين الله في قالب العقل المعيشي الذي يندرج به العبد بين الناس.

فهو صاحب الأبوين حين أخرجهما من الجنة، وصاحب قابيل حين قتل أخاه، وصاحب قوم نوح حين أغرقوا، وقوم عاد حين أهلكوا بالريح العقيم، وصاحب قوم صالح حين أهلكوا بالصيحة، وصاحب الأمة اللوطية حين خُسف بهم وأتبعوا بالرجم بالحجارة، وصاحب فرعون وقومه حين أخذوا الأخذة الرابية، وصاحب عباد العجل حين جرى عليهم ما جرى، وصاحب قريش حين دعوا يوم بدر، وصاحب كل هالك ومفتون.

المطلب الرابع

خذلان الشيطان أولياءه

بيّن ابن القيم رحمه الله تعالى أن الشيطان لا يحامي عن أوليائه، بل يسلمهم، ويضحك منهم ويشمت بهم، وفي ذلك يقول: «من كيد الشيطان للإنسان أنه يورده الموارد التي يُخيِّل إليه أن فيها منفعته، ثم يصدره المصادر التي فيها عطبه، ويتخلى عنه ويُسلمه ويقف يشمت به، ويضحك منه، فيأمره بالسرقة والزنا والقتل، ويدل عليه ويفضحه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٤٨]، فإنه تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بدر في صورة سُراقة بن مالك، وقال: أنا جار لكم من بني كِنانة أن يقصدوا أهلكم وذراريكم بسوء، فلما رأى عدو الله جنود الله تعالى من الملائكة نزلت لنصر رسوله فرّ عنهم، وأسلمهم، كما قال حسان:

دَلاَّهــم بغــرورٍ، ثــم أســلمهم إن الخــبيث لمــن والاه غــرَّار

وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، أمره بالزنا ثم بقتلها، ثم دلّ أهلها عليه، وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل فرّ عنه وتركه، وفيه أنزل الله سبحانه ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر:١٦] وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرت عنه هذه القصة، بل هو عام في كل من

أطاع الشيطان في أمره له بالكفر، لينصره ويقضي حاجته؛ فإنه يتبرأ منه ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملةً في النار، ويقول لهم: ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم:٢٢] فأوردهم شر الموارد وتبرأ منهم كل البراءة.

وتكلم الناس في قول عدو الله (إني أخاف الله) فقال قتادة وابن إسحاق: «صدق عدو الله في قوله (إني أرى ما لا ترون) وكذلك في قوله (إني أخاف الله) والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة فأوردهم وأسلمهم، وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه» .

وقالت طائفة: «إنما خاف بطش الله تعالى به في الدنيا، كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل أو يؤخذ بجرمه، لا أنه خاف عقابه في الآخرة» ، وهذا أصح، وهذا الخوف لا يستلزم إيماناً ولا نجاة [إغاثة اللهفان: ١/ ١٠٨-١٠٩].

المطلب الخامس

تزيينه الباطل بالأيمان الكاذبة

بيّن ابن القيم: «أن أول كيد الشيطان كيده الأبوين بالأيمان الكاذبة: أنه ناصح لهما، وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة، قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۞ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۞ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف:٢٠-٢٢] .

فالوسوسة: حديث النفس والصوت الخفي، وبه سمى صوت الحُليّ وسواساً، ورجل موسوس بكسر الواو، ولا يفتح فإنه لحن، وإنما قيل له: موسوس؛ لأن نفسه توسوس إليه، قال تعالى: ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق:١٦] .

وعلم عدو الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما، فإنها معصية، والمعصية تهتك ستر ما بين الله وبين العبد، فلما عصيا انهتك ذلك الستر، فبدت لهما سوآتهما، فالمعصية تبدي السوأة الباطنة والظاهرة، ولهذا رأى النبي ﷺ في رؤياه الزناة والزواني عراة بادية سوآتهم [عزاه محقق الكتاب إلى البخاري في صحيحه]، وهكذا إذا رؤي الرجل أو المرأة في منامه مكشوف السوأة فإنه يدل على فساد في دينه، قال الشاعر:

إنـي كأني أرى من لا حياء لـه ... ولا أمانـة وسـط الناس عريانا

فإن الله سبحانه أنزل لباسين: لباساً ظاهراً يواري العورة ويسترها، ولباساً باطناً من التقوى، يجمل العبد ويستره، فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها.

ثم قال: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ [الأعراف:٢٠] أي: إلا كراهة أن تكونا ملكين، وكراهة أن تخلدا في الجنة، ومن ههنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها، وهذا باب كيْده الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم، فإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه، ويخالطه، ويسألها عما تحبه وتؤثره، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب، وكذلك علّم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه، فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود.

فشام عدو الله الأبوين، فأحسّ منهما إيناساً وركوناً إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم فعلم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب،

فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين، وقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.

وكان عبدالله بن عباس يقرؤها ملكين بكسر اللام، ويقول: «لم يطمعا أن يكونا من الملائكة، ولكن استشرفا أن يكونا ملكين فأتاهما من جهة الملك، ويدل على هذه القراءة قوله في الآية الأخرى ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾ [طه:١٢٠] .

وأما على القراءة المشهورة فيقال: كيف أطمع عدو الله آدم عليه السلام أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة، وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشرب، وكان آدم عليه السلام أعلم بالله وبنفسه وبالملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكله، ولا سيما مما نهاه الله عز وجل عنه ؟ .

فالجواب: أن آدم وحواء عليهما السلام لم يطمعا في ذلك أصلاً، وإنما كذبهما عدو الله وغرّهما، وخدعهما بأن سمى تلك الشجرة شجرة الخلد، فهذا أول المكر والكيد، ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها، فسموا الخمر: أم الأفراح، وسموا أخاها بلقيمة الراحة، وسموا الربا بالمعاملة، وسموا المكوس بالحقوق السلطانية، وسموا أقبح الظلم وأفحشه شرع الديوان، وسموا أبلغ الكفر، وهو جحد صفات الرب تنزيهاً، وسموا مجالس الفسوق مجالس الطيبة؛ فلما سماها شجرة الخلد قال: ما نهاكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنة ولا تموتا فتكونان مثل الملائكة الذين لا يموتون، ولم يكن آدم عليه السلام قد علم أنه يموت بعد، واشتهى الخلود في الجنة، وحصلت الشبهة من قول العدو وإقسامه بالله جهد أيمانه أنه ناصح لهما، فاجتمعت الشبهة والشهوة، وساعد القدر، فأخذتهما سِنَة الغفلة، واستيقظ لهما العدو.

المطلب السادس

تزيينه الكلام الباطل والآراء المتهافتة

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى: «أن من حيل الشيطان ومكايده: الكلام الباطل، والآراء المتهافتة، والخيالات المتناقضة، التي هي زبالة الأذهان، ونُحاتة الأفكار، والزّبد الذي يقذف به القلوب المظلمة المتحيّرة، التي تعدل الحق بالباطل، والخطأ بالصواب، قد تقاذفت بها أمواج الشبهات، ورانت عليها غيوم الخيالات، فمركبها القيل والقال، والشك والتشكيك، وكثرة الجدال، ليس لها حاصل من اليقين يعول عليه، ولا معتقد مطابق للحق يُرجع إليه، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً؛ فقد اتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجوراً، وقالوا من عند أنفسهم.

فقالوا منكراً من القول وزوراً، فهم في شكّهم يعمهون، وفي حيرتهم يترددون، نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تلته الشياطين على ألسنة أسلافهم من أهل الضلال، فهم إليه يحاكمون، وبه يتخاصمون، فارقوا الدليل، واتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، وأضلوا كثيراً، وضلوا عن سواء السبيل» [إغاثة اللهفان: ١/١١٨].

وضرب ابن القيم مثلاً للكلام الباطل والآراء المتهافتة، بما ألقاه الشيطان «إلى جُهال المتصوفة من الشطح والطامات، وأبرزه لهم في قالب الكشف من الخيالات، فأوقعهم في أنواع الأباطيل والترهات، وفتح لهم أبواب الدعاوي الهائلات، وأوحى إليهم، أن وراء العلم طريقاً إن سلكوه أفضى بهم إلى كشف العيان، وأغناهم عن التقيد بالسنّة والقرآن، فحسّن لهم رياضة النفوس وتهذيبها؛ وتصفية الأخلاق والتجافي عما عليه أهل

الدنيا، وأهل الرياسة والفقهاء، وأرباب العلوم، والعمل على تفريغ القلب وخلوّه من كل شيء، حتى ينتقش فيه الحق بلا واسطة تعلم، فلما خلا من صورة العلم الذي جاء به الرسول نقش فيه الشيطان بحسب ما هو مستعد له من أنواع الباطل، وخيّله للنفس حتى جعله كالمشاهد كشفاً وعياناً، فإذا أنكره عليهم ورثة الرسل قالوا: لكم العلم الظاهر، ولنا الكشف الباطن، ولكم ظاهر الشريعة، وعندنا باطن الحقيقة، ولكم القشور ولنا اللباب، فلما تمكّن هذا من قلوبهم سلخها من الكتاب والسنّة والآثار كما ينسلخ الليل من النهار، ثم أحالهم في سلوكهم على تلك الخيالات، وأوهمهم أنها من الآيات البينات، وأنها من قبل الله سبحانه إلهامات وتعريفات، فلا تعرض على السنّة والقرآن، ولا تعامل إلا بالقبول والإذعان.

ويأمرك بإذلالها وامتهانها حيث تكون مصلحتها في إعزازها وصيانتها، كما يأمرك بالتبذل لذوي الرياسات، وإهانة نفسك لهم، ويخيل إليك أنك تعزها بهم، وترفه قدرها بالذل لهم، ويذكرك قول الشاعر:

أهـين لهـم نفسـي لأرفعها بهم ولن تكرم النفس التي لا تهينها

وغلط هذا القائل: فإن ذلك لا يصلح إلا لله وحده؛ فإنه كلما أهان العبد نفسه له أكرمه وأعزّه، بخلاف المخلوق، فإنك كلما أهنت نفسك له ذللت عند الله وعند أوليائه وهنت عليه.

وضرب مثلاً: «لكيد الشيطان وخداعه للإنسان أنه يأمر الرجل بانقطاعه في مسجد، أو رباط، أو زاوية، أو تربة، ويحبسه هناك، وينهاه عن الخروج، ويقول له: متى خرجت تبذلت للناس، وسقطت من أعينهم، وذهبت هيبتك من قلوبهم، وربما ترى في طريقك منكراً، وللعدو في ذلك

مقاصد خفية يريدها منه: منها الكبر، واحتقار الناس، وحفظ الناموس، وقيام الرياسة، ومخالطة الناس تذهب ذلك، وهو يريد أن يزار ولا يزور، ويقصده الناس ولا يقصدهم، ويفرح بمجيء الأمراء إليه، واجتماع الناس عنده، وتقبيل يده، فيترك من الواجبات والمستحبات والقربات ما يقربه إلى الله، ويتعوّض عنه بما يقرب الناس إليه» .

وقد كان رسول الله ﷺ يخرج إلى السوق، قال بعض الحفاظ: «وكان يشتري حاجته ويحملها بنفسه» ذكره أبو الفرج ابن الجوزي وغيره.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يخرج إلى السوق يحمل الثياب، فيبيع ويشتري.

ومرّ عبدالله بن سلام رضي الله عنه وعلى رأسه حُزْمة حطب، فقيل له: ما يحملك على هذا، وقد أغناك الله عز وجل؟ فقال: أردت أن أدفع به الكبر، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة عبد في قلبه مثقال ذرة من الكبر» .

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يحمل الحطب وغيره من حوائج نفسه وهو أمير على المدينة، ويقول «افسحوا لأميركم افسحوا لأميركم» .

وخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً وهو خليفة في حاجة له ماشياً، فأعيي، فرأى غلاماً على حمار له، فقال: يا غلام احملني فقد أعييت، فنزل الغلام عن الدابة، وقال: اركب يا أمير المؤمنين، فقال: لا، اركب أنت وأنا خلفك، فركب خلف الغلام، حتى دخل المدينة والناس يرونه.

ومن كيده: أنه يغري الناس بتقبيل يده، والتمسح به، والثناء عليه، وسؤاله الدعاء، ونحو ذلك، حتى يرى نفسه، ويعجبه شأنها، فلو قيل له: إنك من أوتاد الأرض، وبك يدفع البلاء عن الخلق؛ ظن ذلك حقاً، وربما

قيل له: إنه يتوسل به إلى الله تعالى ويُسأل الله تعالى به وبحرمته، فيقضي حاجتهم، فيقع ذلك في قلبه، ويفرح به، ويظنه حقاً، وذلك كل الهلاك، فإذا رأى من أحد من الناس تجافياً عنه، أو قلة خضوع له، تذمّر لذلك ووجد في باطنه، وهذا شر من أرباب الكبائر المصرين عليها، وهم أقرب إلى السلامة منه.

وضرب ابن القيم مثلاً ثالثاً لكيد الشيطان بالإنسان: «أنه يحسن إلى أرباب التخلي والزهد والرياضة العمل بهاجسهم وواقعهم، دون تحكيم أمر الشارع، ويقولون: القلب إذا كان محفوظاً مع الله كانت هواجسه وخواصه معصومة من الخطأ، وهذا من أبلغ كيد العدو فيهم.

فإن الخواطر والهواجس ثلاثة أنواع: رحمانية، وشيطانية، ونفسانية، كالرؤيا، فلو بلغ العبد من الزهد والعبادة ما بلغ فمعه شيطانه ونفسه لا يفارقانه إلى الموت، والشيطان يجري منه مجرى الدم، والعصمة إنما هي للرسل صلوات الله وسلامه عليهم الذين هم وسائط بين الله عز وجل وبين خلقه، في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده، ومن عداهم يصيب ويخطىء، وليس بحجة على الخلق.

وقد كان سيد المحدثين الملهمين: عمر بن الخطاب ﷺ ، يقول الشيء فيرده عليه من هو دونه، فيتبين له الخطأ، فيرجع إليه، وكان يعرض هواجسه وخواطره على الكتاب، ولا يتلفت إليها ولا يحكم بها ولا يعمل بها.

وهؤلاء الجهال يرى أحدهم أدنى شيء فيُحكّم هواجسه وخواطره على الكتاب والسنّة، ولا يلتفت إليهما، ويقول: حدثني قلبي عن ربي، ونحن أخذنا عن الحي الذي لا يموت، وأنتم أخذتم عن الوسائط، ونحن

أخذنا بالحقائق، وأنتم اتبعتم الرسوم، وأمثال ذلك من الكلام الذي هو كفر وإلحاد، وغاية صاحبه أن يكون جاهلاً يعذر بجهله، حتى قيل لبعض هؤلاء: لا تذهب فتسمع الحديث من عبدالرزاق؟ فقال: ما يصنع بالسماع من عبدالرزاق من يسمع من الملك الخلاق؟

وهذا غاية الجهل، فإن الذي سمع من الملك الخلاق موسى بن عمران كليم الرحمن، وأما هذا وأمثاله فلم يحصل لهم السماع من بعض ورثة الرسول، وهو يدّعي أنه يسمع الخطاب من مرسله، فيستغني به عن ظاهر العلم، ولعل الذي يخاطبهم هو الشيطان، أو نفسه الجاهلة، أو هما مجتمعين، ومنفردين.

ومن ظن أنه يستغني عما جاء به الرسول بما يُلقى في قلبه من الخواطر والهواجس فهو من أعظم الناس كفراً، وكذلك إن ظن أنه يكتفي بهذا تارة وبهذا تارة، فما يلقى في القلوب لا عبرة به، ولا التفات إليه إن لم يعرض على ما جاء به الرسول ويشهد له بالموافقة، وإلا فهو من إلقاء النفس والشيطان.

وقد سئل عبدالله بن مسعود عن مسألة المفوّضة شهراً، فقال بعد الشهر: «أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله بريء منه ورسوله» [عزاه محقق الكتاب إلى أبي داود في سننه].

وضرب مثلاً رابعاً لكيد الشيطان بالإنسان في «الوسواس الذي كادهم به في أمر الطهارة والصلاة عند عقد النية، حتى ألقاهم في الآصار والأغلال، وأخرجهم عن اتباع سنّة رسول الله ﷺ ، وخيّل إلى أحدهم أن ما جاءت به السنّة لا يكفي حتى يضم إليه غيره، فجمع لهم بين هذا الظن الفاسد، والتعب الحاضر، وبطلان الأجر أو تنقيصه.

ولا ريب أن الشيطان هو الداعي إلى الوسواس، فأهله قد أطاعوا الشيطان، ولبّوا دعوته، واتبعوا أمره، ورغبوا عن اتباع سنّة رسول الله ﷺ وطريقته، حتى إن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله ﷺ ، أو اغتسل كاغتساله؛ لم يطهر ولم يرتفع حدثه، ولولا العذر بالجهل لكان هذا مشاقة للرسول، فقد كان رسول الله ﷺ يتوضأ بالمُدّ، وهو قريب من ثلث رطل بالدمشقي، ويغتسل بالصاع وهو نحو رطل وثلث، والموسوس يرى أن ذلك القدر لا يكفيه لغسل يديه، وصحّ عنه عليه السلام أنه توضأ مرة مرة، ولم يزد على ثلاث، بل أخبر أن «من زاد عليها فقد أساء وتعدى وظلم» فالموسوس مسيء متعد ظالم بشهادة رسول الله ﷺ ، فكيف يتقرب إلى الله بما هو مسيء به متعدّ فيه لحدوده؟ .

وصحّ عنه أنه كان يغتسل هو وعائشة رضي الله عنها من قصعة بينهما فيها أثر العجين، ولو رأى الموسوس من يفعل هذا لأنكر عليه غاية الإنكار، وقال: ما يكفي هذا القدر لغسل اثنين؟ كيف والعجين يحلله الماء فيغيره؟ هذا والرشاش ينزل في الماء فينجسه عند بعضهم، ويفسده عند آخرين، فلا تصح به الطهارة، وكان ﷺ يفعل ذلك مع غير عائشة، مثل ميمونة وأم سلمة، وهذا كله في الصحيح.

وثبت أيضاً في الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: «كان الرجال والنساء على عهد رسول الله ﷺ يتوضؤون من إناء واحد» [البخاري: ١٩٣. ولفظه: (يتوضؤون في زمان رسول الله ﷺ جميعاً)] والآنية التي كان عليه السلام وأزواجه وأصحابه ونساؤهم يغتسلون منها لم تكن من كبار الآنية ولا كانت لها مادة تمدها، كأنبوب الحمام ونحوه، ولم يكونوا يراعون فيضانها حتى يجري الماء من حافاتها، كما يراعيه جهال الناس ممن بُلي بالوسواس في جُرْن الحمام.

وزاد ابن القيم هذه المسألة تجلية وإيضاحاً، فقال: «ثم إن طائفة الموسوسين قد تحقق منهم طاعة الشيطان، حتى اتصفوا بوسوسته، وقبلوا قوله، وأطاعوه، ورغبوا عن اتباع رسول الله ﷺ وصحابته، حتى إن أحدهم ليرى أنه إذا توضأ وضوء رسول الله ﷺ ، أو صلّى كصلاته؛ فوضؤوه باطل، وصلاته غير صحيحة، ويرى أنه إذا فعل مثل فعل رسول الله ﷺ في مواكلة الصبيان، وأكل طعام عامة المسلمين؛ أنه قد صار نجساً، يجب عليه تسبيع يده وفمه. كما لو ولغ فيهما كلب أو بالَ عليهما هرّ.

ثم إنه بلغ من استيلاء إبليس عليهم أنهم أجابوه إلى ما يشبه الجنون، ويقارب مذهب السوفَسْطائية الذين ينكرون حقائق الموجودات، والأمور المحسوسات، وعِلْمُ الإنسان بحال نفسه من الأمور الضروريات اليقينيات، وهؤلاء يغسل أحدهم عضوه غسلاً يشاهده ببصره ويكبّر، ويقرأ بلسانه بحيث تسمعه أذناه، ويعلمه بقلبه، بل يعلمه غيره منه ويتيقنه، ثم يشك: هل فعل ذلك أم لا؟ وكذلك يشككه الشيطان في نيّته وقصده التي يعلمها من نفسه يقيناً، بل يعلمها غيره منه بقرائن أحواله. ومع هذا يقبل قول إبليس في أنه ما نوى الصلاة، ولا أرادها، مكابرة منه لعيانه، وجحداً ليقين نفسه، حتى تراه متلدداً متحيراً، كأنه يعالج شيئاً يجتذبه، أو يجد شيئاً في باطنه يستخرجه، كل ذلك مبالغة في طاعة إبليس، وقبول وسوسته، ومن انتهت طاعته لإبليس إلى هذا الحد فقد بلغ النهاية في طاعته.

ثم إنه يقبل قوله في تعذيب نفسه، ويطيعه في الإضرار بجسده، تارةً بالغوص في الماء البارد، وتارةً بكثرة استعماله وإطالة العَرْك، وربما فتح عينيه في الماء البارد، وغسل داخلهما حتى يضر ببصره، وربما أفضى إلى

كشف عورته للناس، وربما صار إلى حال يسخر منه الصبيان ويستهزئ به من يراه.

قلت: ذكر أبو الفرج بن الجوزي عن أبي الوفاء بن عقيل: أن رجلاً قال له: أنغمس في الماء مراراً كثيرة وأشكّ: هل صحّ [لي] الغسل أم لا، فما ترى في ذلك؟ فقال له الشيخ: اذهب، فقد سقطت عنك الصلاة. قال: وكيف؟ قال: لأن النبي ﷺ قال: «رُفع القلم عن ثلاثة: المجنون حتى يفيق، والنائم حتى يستيقظ، والصبي حتى يبلغ» ومن ينغمس في الماء مراراً ويشك هل أصابه الماء أم لا، فهو مجنون.

قال: وربما شغله بوسواسه حتى تفوته الجماعة، وربما فاته الوقت، ويشغله بوسوسته في النيّة حتى تفوته التكبيرة الأولى، وربما فوّت عليه ركعة أو أكثر، ومنهم من يحلف أنه لا يزيد على هذا، ثم يكذب [إغاثة اللهفان: ١/ ١١٩-١٣٤].

المبحث التاسع

إحراز الإنسان نفسه من الشيطان

المطلب الأول

إعانة الرحمن الإنسان في حربه مع الشيطان

حدثنا ابن القيم - رحمه الله تعالى - أن الدنيا هي دار جهاد بين الإنسان والشيطان، وقد أمدّ الله عباده بما يلزمهم لتحقيق مراده في نصرهم وإعزازهم، وفي ذلك يقول: «ولما علم سبحانه أن آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وسلّط عليهم، أمدهم بعساكر وجند يلقونه بها، وأمدّ عدوهم أيضاً بجند وعساكر يلقاهم بها، وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر، التي هي بالإضافة إلى الآخرة كنفس واحدة من أنفاسها، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وأخبر أن ذلك وعداً مؤكداً عليه في أشرف كتبه، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، ثم أخبر أنه لا أوفى بعهده منه سبحانه، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التي من أراد أن يعرف قدرها فلينظر إلى المشتري من هو، وإلى الثمن المبذول في هذه السلعة، وإلى من جرى على يديه هذا العقد، فأي فوز أعظم من هذا، وأي تجارة أربح منه؟

ثم أكد سبحانه معهم هذا الأمر بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۞ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۞ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ

ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف:١٠-١٣] ولم يسلط سبحانه هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب المخلوقات إليه إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجات، وأقربهم إليه وسيلة.

فعقد سبحانه لواء هذه الحرب لخلاصة مخلوقاته وهو القلب الذي هو محل معرفته ومحبته وعبوديته والإخلاص له، والتوكل عليه والإنابة إليه، فولاّه أمر هذه الحرب وأيّده بجند من الملائكة لا يفارقونه ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد:١١] يعقب بعضهم بعضاً، كلما جاء جند وذهب جاء بدله آخر، يثبتونه ويأمرونه بالخير ويحضونه عليه، ويعدونه بكرامة الله ويصبرونه، ويقولون: إنما هو صبر ساعة، وقد استرحت راحة الأبد، ثم أيده سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه.

فأرسل إليه رسوله ﷺ ، وأنزل إليه كتابه، فازداد قوة على قوته ومدداً إلى مدده، وعدّة إلى عدّته، وأمدّه مع ذلك بالعقل وزيراً له ومدبراً، وبالمعرفة مشيرة عليه وناصحة له، وبالإيمان مثبتاً له ومؤيداً وناصراً، وباليقين كاشفاً له عن حقيقة الأمر، حتى كأنه يعاين ما وعد الله تعالى أولياءه وحزبه على جهاد أعدائه، فالعقل يدبر أمر جيشه، والمعرفة تصنع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائقة بها، والإيمان يثبته ويقويه ويصبره واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة.

ثم أمدّ سبحانه القائم بهذه الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة. فجعل العين طليعته، والأذن صاحب خبره، واللسان ترجمانه. واليدين والرجلين أعوانه، وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له، ويسألون له أن يقيه

السيئات ويدخله الجنات، وتولى سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه وقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة:٢٢] وهؤلاء جنده ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات:١٧٣].

وعلم عباده كيفية هذه الحرب والجهاد فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:٢٠٠] ولا يتم أمر الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة. فلا يتم الصبر إلا بمصابرة العدو، وهي مقاومته ومنازلته، فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهي المرابطة، وهي لزوم ثغر القلب وحواسه، لئلا يدخل منه العدو، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل. فهذه الثغور يدخل منها العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه. فالمرابطة لزوم هذه الثغور ولا يخفى مكانها فيصادف العدو الثغور خالية فيدخل منها.

فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين أجمعين، أعظم حماية وحراسة من الشيطان الرجيم، وقد خلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد فدخل منه العدو، فكان ما كان.

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به: هو تقوى الله. فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر [الجواب الكافي: ١٤١-١٤٣].

المطلب الثاني

الإنسان بين الملك والشيطان وبين العقل والهوى

الإنسان - كما يرى ابن القيم - واقع بين الشيطان والملك، وبين العقل والهوى وبين النفس الأمارة والقلب، وقال: «ابتلى الله العبد بذلك وجمع

له بين هؤلاء، وأمدّ كل حزب بجنود وأعوان، فلا تزال الحرب سجالاً ودولاً بين الفريقين إلى أن يستولي أحدهما على الآخر، ويكون الآخر مقهوراً معه، فإذا كانت النوبة للقلب والعقل والملك فهنالك السرور والنعيم واللذة والبهجة والفرح وقرة العين وطيب الحياة وانشراح الصدر والفوز بالغنائم، وإذا كانت النوبة للنفس والهوى والشيطان فهنالك الغموم والهموم والأحزاب وأنواع المكاره وضيق الصدر وحبس الملك.

فما ظنك بملك استولى عليه عدوه فأنزله عن سرير ملكه وأسره وحبسه وحال بينه وبين خزائنه وذخائره وخدمه وصيرها له، ومع هذا فلا يتحرك الملك لطلب ثأره، ولا يستغيث بمن يغيثه، ولا يستنجد بمن ينجده، وفوق هذا الملك ملك قاهر لا يقهر، وغالب لا يغلب، وعزيز لا يذل، فأرسل إليه: إن استنصرتني نصرتك، وإن استغثت بي أغثتك، وإن التجأت إليّ أخذت بثأرك، وإن هربت إليّ وأويت إليّ سلطتك على عدوك وجعلته تحت أسرك.

فإن قال هذا الملك المأسور: قد شد عدوي وثاقي، وأحكم رباطي، واستوثق مني بالقيود، ومنعني من النهوض إليك والفرار إليك، والمسير إلى بابك، فإن أرسلت جنداً من عندك يحل وثاقي ويفك قيودي ويخرجني من حبسه، أمكنني أن أوافي بابك، وإلا لم يمكنني مفارقة محبسي ولا كسر قيودي.

فإن قال ذلك احتجاجاً على ذلك السلطان ودفعاً لرسالته ورضا بما هو فيه عند عدوه، خلاه السلطان الأعظم وحاله وولاه ما تولى» [الفوائد: ٦٩-٧٠].

المطلب الثالث

عباد الله الذين لا سلطان للشيطان عليهم

هناك فئة من المؤمنين لا سلطان للشيطان عليهم، ولا يخلص إليهم بحال من الأحوال، وفي هؤلاء يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «وهؤلاء هم

عباده الذين ليس لعدوه عليهم سلطان قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر:٤٢].

ولما علم عدو الله إبليس أن الله تعالى لا يسلم عباده إليه، ولا يسلطه عليهم، قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٢]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ [سبا:٢٠-٢١] فلم يجعل لعدوه سلطاناً على عباده المؤمنين، فإنهم في حرزه وكلاءته وحفظه وتحت كنفه، وإن اغتال عدوه أحدهم كما يغتال اللص الرجل الغافل فهذا لابد منه، لأن العبد قد بلي بالغفلة والشهوة والغضب، ودخوله على العبد من هذه الأبواب الثلاثة، ولو احترز العبد ما احترز، فلابد له من غفلة ولابد له من شهوة، ولابد له من غضب.

وقد كان آدم أبو البشر ﷺ من أحلم الخلق وأرجحهم عقلاً وأثبتهم، ومع هذا فلم يزل به عدو الله حتى أوقعه فيما أوقعه فيه، فما الظن بفراسة الحلم ومن عقله في جنب عقل أبيه كتفلة في بحر؟ ولكن عدو الله لا يخلص إلى المؤمن إلا غيلة على غرة وغفلة، فيوقعه ويظن أنه لا يستقبل ربه عز وجل بعدها، وأن تلك الواقعة قد اجتاحته وأهلكته، وفضل الله تعالى ورحمته وعفوه ومغفرته وراء ذلك كله.

فإذا أراد الله بعبده خيراً فتح له من أبواب (التوبة) والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجأ إليه، ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه ما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به سبب رحمته، حتى يقول عدو الله: يا ليتني تركته ولم أوقعه» [الوابل الصيب: ٦].

المطلب الرابع

عشرة طرق تقي الإنسان من الشيطان

ذكر ابن القيم عشرة طرق يستطيع أن يقي بها الإنسان نفسه من الشيطان.

أحدها الاستعاذة بالله من الشيطان. قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت:٣٦] وفي موضع آخر ﴿ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:٢٠٠] وقد تقدم أن السمع المراد به ههنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام، وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم، بذكر صيغة هو الدال على تأكيد النسبة واختصاصها، وعرف الوصف بالألف واللام في سورة حم، لاقتضاء المقام لهذا التأكيد، وتركه في سورة الأعراف لاستغناء المقام عنه، فإن الأمر بالاستعاذة في سورة حم وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس، وهو مقابلة إساءة المسيء بالإحسان إليه، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون، ولا يلقاه إلا ذو حظ عظيم، كما قال الله تعالى.

والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا، بل يريه أن هذا ذل وعجز، ويسلط عليه عدوه، فيدعوه إلى الانتقام، ويزينه له، فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه، وأن لا يسيء إليه، ولا يحسن فلا يؤثر الإحسان إلى المسيء إلا من خالفه، وآثر الله وما عنده على حظه العاجل، فكان المقام مقام تأكيد وتحريض فقال فيه: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت:٣٦].

وأما في سورة الأعراف فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين، وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان، بل بالإعراض، وهذا سهل على النفوس غير مستعصٍ عليها، فليس حرص الشيطان وسعيه في دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان، فقال ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف:٢٠٠] وقد تقدم ذكر الفرق بين هذين الموضعين وبين قوله في حم المؤمن ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر:٥٦].

وفي صحيح البخاري عن عدي بن ثابت عن سليمان بن صرد قال: «كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستبان، فأحدهما احمرّ وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد» [البخاري: ٣٢٨٢، ٦٠٤٨، ٦١١٥، مسلم: ٢٦١٠، أبو داود: ٤٧٨١].

الحرز الثاني: قراءة هاتين السورتين (يعني قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس) فإن لهما تأثيراً عجيباً في الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه. ولهذا قال النبي ﷺ «ما تعوذ المتعوذون بمثلهما» ، وقد تقدم أنه كان يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة، وتقدم قوله ﷺ: «إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثاً حين يمسي، وثلاثاً حين يصبح كفته من كل شيء».

الحرز الثالث: قراءة آية الكرسي ففي الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتى آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، فذكر الحديث، فقال إذا آويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنه

لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ صدقك، وهو كذوب، ذاك الشيطان» .

الحرز الرابع: قراءة سورة البقرة، ففي الصحيح من حديث سهيل عن أبيه عبدالله، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة» .

الحرز الخامس: خاتمة سورة البقرة، فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى الأنصاري قال: «قال رسول الله ﷺ من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه» [البخاري: ٥٠٤٠، ٥٠٠٨، ومسلم: ٨٠٨].

وفي الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، فلا يقرآن في دار ثلاث ليالٍ فيقربها شيطان» [الترمذي: ٢٨٨٢. وقال فيه: هذا حديث حسن غريب].

الحرز السادس: أول (سورة حم المؤمن) إلى قوله: (إليه المصير): مع آية الكرسي، ففي الترمذي من حديث عبدالرحمن بن أبي بكر، عن ابن أبي مليكة، عن زرارة بن مصعب، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: (قال رسول الله ﷺ: من قرأ (حم المؤمن) إلى (إليه المصير) وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي.

ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح [الترمذي: ٢٨٧٩. وقال فيه: هذا حديث غريب]، وعبدالرحمن المليكي وإن كان قد تكلم فيه من قبل حفظه فالحديث له شواهد في قراءة آية الكرسي، وهو محتمل على غرابته.

الحرز السابع: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة، ففي الصحيحين من حديث سُمّي مولى

أبي بكر عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك» [البخاري: ٣٢٩٣، ٦٤٠٣. ومسلم: ٢٦٩١، والترمذي: ٣٤٦٨]. فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير سهل على من يسره الله عليه.

الحرز الثامن: وهو من أنفع الحروز من الشيطان كثرة ذكر الله عز وجل، ففي الترمذي من حديث الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وأنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم، وإما أن آمرهم، فقال يحيى أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي، أو أعذب.

فجمع الناس في بيت المقدس، فامتلأ، وقعدوا على الشرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات، أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن، أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال: هذه داري، وهذا عملي، فاعمل وأدّ إليّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك.

وأن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن

ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال أنا أفديه منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم.

وأمركم أن تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى أتى على حصن حصين، فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله» وقال البخاري: الحارث الأشعري له صحبة، وله غير هذا الحديث، فقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله، وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة: (قل أعوذ برب الناس) فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، والخناس الذي إذا ذكر العبد الله انخنس، وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب، وألقى إليه الوساوس التي هي مبادئ الشر كله فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل.

الحرز التاسع: الوضوء والصلاة وهذا من أعظم ما يتحرز به منه، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة، فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم، كما في الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه، فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض» .

وفي أثر آخر «إن الشيطان خُلق من نار وإنما تُطفأ النار بالماء» فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة، فإنها نار، والوضوء يطفئها، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله، أذهبت أثر ذلك كله، وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه.

الحرز العاشر: إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس، فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم، وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة، فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به، والفكرة في الظفر به، فمبدأ الفتنة من فضول النظر كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه» أو كما قال ﷺ فالحوادث العِظام إنما كلها من فضول النظر فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة كما قال الشاعر:

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر

[بدائع الفوائد: ٢٦٧-٢٧١]

المطلب الخامس
ذكر الله وقاية من الشيطان

وخلاصة الأمر الجامع الذي يعصم الله به من الشيطان هو الإكثار من ذكر الله تعالى، وقد بيّن هذا ابن القيم، فقال: «والمقصود قوله ﷺ : «ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله عز وجل فطرد الشيطان عنه» فهذا مطابق لحديث الحارث الأشعري الذي شرحناه في هذه الرسالة وقوله فيه: «وآمركم بذكر الله عز وجل، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو فانطلقوا في طلبه سراعاً، وانطلق حتى أتى حصناً حصيناً فأحرز نفسه فيه» فكذلك الشيطان لا يحرز العباد أنفسهم منه إلا بذكر الله عز وجل.

وفي الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : «من قال - يعني إذا خرج من بيته - : بسم الله توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. يقال له: كفيت وهديت ووقيت. وتنحى عنه الشيطان، فيقول لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكفي ووقي؟» رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال: حديث حسن [الترمذي: ٣٤٢٦، إلى قوله تنحى عنه الشيطان، وقال فيه الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب].

وقد تقدم قوله ﷺ : «من قال في يوم مائة مرة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كانت له حرزاً من الشيطان حتى يمسي» [البخاري: ٣٢٩٣، ومسلم: ٢٦٩١. وابن ماجه: ٣٧٩٨. عن أبي هريرة] وذكر سفيان عن أبي الزبير عن عبدالله بن ضمرة عن كعب قال: «إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله، قال الملك: هديت، وإذا قال: توكلت على الله، قال الملك: كفيت، وإذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، قال الملك: حفظت. فيقول الشياطين بعضهم لبعض: ارجعوا ليس لكم عليه سبيل، كيف لكم بمن كُفِي وهُدِي وحفظ؟» .

وقال أبو خلاد المصري: من دخل في الإسلام دخل في حصن، ومن دخل المسجد فقد دخل في حصنين، ومن جلس في حلقة يُذكر الله عز وجل فيها فقد دخل في ثلاثة حصون. وقد روى الحافظ أبو موسى في كتابه من حديث أبي عمران الجوني عن أنس عن النبي ﷺ قال: «إذا وضع العبد جنبه على فراشه فقال: بسم الله، وقرأ فاتحة الكتاب أمن من شر الجن والإنس ومن كل شيء» .

وفي صحيح البخاري عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: (وكلني رسول الله ﷺ زكاة رمضان أن أحتفظ بها، فأتاني آتٍ فجعل يحثو الطعام،

فأخذته، فقال: دعني فإني لا أعود، فذكر الحديث وقال: فقال له في الثالثة: أعلمك كلمات ينفعك الله بهن، إذا آويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أوّلها إلى آخرها فإنه لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخلى سبيله، فأصبح فأخبر النبي ﷺ بقوله فقال: «صدقك، وهو كذوب» وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : «إذا آوى الإنسان إلى فراشه ابتدره ملك وشيطان. فيقول الملك: اختم بخير، ويقول الشيطان: اختم بشر. فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه - يعني النوم - طرد الملك الشيطان وبات يكلأه، فإذا استيقظ ابتدره ملك وشيطان، فيقول الملك، افتح بخير، ويقول الشيطان: افتح بشر، فإن قال: الحمد لله الذي أحيا نفسي بعد موتها ولم يمتها في منامها، الحمد لله الذي يمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، الحمد لله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، الحمد لله الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه» [البخاري: ٢٣١١، ٥٠١٠].

وفي الصحيحين من حديث سالم بن أبي الجعد عن كريب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «أما لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: (بسم الله، اللهم جنّبنا الشيطان وجنّب الشيطان ما رزقتنا، فيولد بينهما ولد، لا يضره الشيطان أبداً) [البخاري: ٥١٦٥، مسلم: ١٤٣٤] . وذكر الحافظ أبو موسى عن الحسن بن علي قال: أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين الآية أن يعصمه الله تعالى من كل شيطان ظالم، ومن كل شيطان مريد، ومن كل سبع ضار، ومن كل لص عاد: آية الكرسي وثلاث آيات من الأعراف: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [الأعراف:٥٤]، وعشراً من

الصافات وثلاث آيات من الرحمن ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [الرحمن:٣٣] وخاتمة سورة الحشر ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الحشر:٢١].

وقال محمد بن أبان: بينما رجل يصلي في المسجد إذا هو بشيء إلى جنبه فجفل منه فقال: ليس عليك مني بأس إنما جئتك في الله تعالى، ائت عروة فسله: ما الذي يعوذ به؟ يعني من إبليس الأباليس. قال: قل: آمنت بالله العظيم وحده، وكفرت بالجبت والطاغوت، واعتصمت بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليم. حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعا، ليس وراء الله منتهى.

وقال بشر بن منصور عن وهيب بن الورد قال: خرج رجل إلى الجبانة بعد ساعة من الليل. قال فسمعت حساً - أو أصواتاً - شديداً - وجيء بسرير حتى وُضع، وجاء شيء حتى جلس عليه. قال: واجتمعت إليه جنوده، ثم صرخ فقال: من لي بعروة بن الزبير؟ فلم يجبه أحد حتى تتابع ما شاء الله عز وجل من الأصوات، فقال واحد: أنا أكفيكه. قال فتوجه نحو المدينة وأنا ناظر، ثم أوشك الرجعة فقال: لا سبيل إلى عروة، وقال: ويلك لم؟ وقال: وجدته يقول كلمات إذا أصبح وإذا أمسى فلا نخلص إليه معهن، قال الرجل: فلما أصبحت قلت لأهلي: جهزوني، فأتيت المدينة فسألت عنه حتى دللت عليه، فإذا شيخ كبير، فقلت: أشيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت؟ فأبى أن يخبرني، فأخبرته ما رأيت وما سمعت.

فقال: ما أدري، غير أني أقول إذا أصبحت: آمنت بالله العظيم، وكفرت بالجبت والطاغوت، واستمسكت بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، والله سميع عليم. إذا أصبحت قلت ثلاث مرات، وإذا أمسيت قلت ثلاث مرات.

وذكر أبو موسى عن مسلم البطين قال: قال جبريل للنبي ﷺ : (إن عفريتاً من الجن يكيدك، فإذا آويت إلى فراشك فقل: أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ من الأرض وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن).

وقد ثبت في الصحيح أن الشيطان يهرب من الأذان، قال سهل بن أبي صالح: أرسلني أبي إلى بني حارثة ومعي غلام - أو صاحب - لنا فنادى منادٍ من حائط باسمه، فأشرف الذي معي على الحائط فلم يرَ شيئاً، فذكرت ذلك لأبي فقال: لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك، ولكن إذا سمعت صوتاً فناد بالصلاة، فإني سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الشيطان إذا نودي للصلاة ولى وله حصاص» [عزاه محقق الكتاب إلى مسلم وأحمد]. وفي رواية: «إذا سمع النداء ولى وله ضراط، حتى لا يسمع التأذين» [مسلم: ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩] الحديث.

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي رجاء عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ : «استكثروا من لا إله إلا الله والاستغفار، فإن الشيطان قال: قد أهلكتهم بالذنوب وأهلكوني بقول لا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك منهم أهلكتهم بالأهواء حتى يحسبون أنهم مهتدون فلا يستغفرون» [عزاه محقق الكتاب إلى الهيثمي وحكم عليه بالضعف].

وذكر أيضاً عن إبراهيم بن الحكم عن أبيه عن عكرمة قال: بينما رجل مسافر إذ مرّ برجل نائم ورأى عنده شياطين، فسمع المسافر أحد الشيطانين يقول لصاحبه اذهب فأفسد على هذا النائم قلبه، فلما دنا منه

رجع إلى صاحبه فقال: لقد نام على آية ما لنا إليه سبيل، فذهب إلى النائم فلما دنا منه رجع قال: صدقت. فذهب.

ثم إن المسافر أيقظه وأخبره بما رأى من الشيطانين فقال: أخبرني على أي آية نمت، قال على هذه الآية: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:٥٤].

وقال أبو النضر هاشم بن القاسم: كنت أرى في داري... فقيل: يا أبا النضر تحول عن جوارنا. قال: فاشتد ذلك علي، فكتبت إلى الكوفة إلى ابن إدريس والمحاربي وأبي أسامة، فكتب إليّ المحاربي: إن بئراً بالمدينة كان يقطع رشاؤها، فنزل بهم ركب، فشكوا ذلك إليهم، فدعوا بدلو من ماء، ثم تكلموا هذا الكلام فصبوه في البئر، فخرجت نار من البئر فطفئت على رأس البئر.

قال أبو النضر: فأخذت توراً من ماء، ثم تكلمت فيه بهذا الكلام، ثم تتبعت به زوايا الدار فرششته، فصاحوا بي: أحرقتنا، نحن نتحول عنك. وهو: بسم الله، أمسينا بالله الذي ليس منه شيء ممتنع، وبعزة الله التي لا ترام ولا تضام، وبسلطان الله المنيع نحتجب، وبأسمائه الحسنى كلها عائذ من الأبالسة، ومن شر شياطين الإنس والجن. ومن شر كل معلن أو مسر، ومن شر ما يخرج بالليل ويكمن بالنهار، ويكمن بالليل ويخرج بالنهار. ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ.

ومن شر إبليس وجنوده، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم. أعوذ بالله بما استعان به موسى وعيسى وإبراهيم الذي وفى، من شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر إبليس وجنوده، ومن شر ما يبغي، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات:١-١٠] [الوابل الصيب: ٨٣-٨٧].

المطلب السادس

الاستعاذة من الشيطان

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى أن «شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسة الشيطان، فالنفس مركب الشيطان وموضع شره، ومحل طاعته، وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن» [إغاثة اللهفان: ١/ ٩٠].

وأورد النص القرآني الأمر بذلك، وهو قوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل:٩٨-١٠٠] .

ثم بيّن معنى الاستعاذة فقال: « (استعذ بالله) امتنع به، واعتصم به، والجأ إليه» [إغاثة اللهفان: ١/ ٩١].

وبيّن رحمه الله تعالى أن الله أمر بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن، وفي ذلك وجوه:

١- أن القرآن شفاء لما في الصدور يُذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة، فهو دواء لما أمرّه فيها الشيطان، فأمر أن يطرد مادة الداء ويُخلى منه القلب ليصادف الدواء محلاً خالياً، فيتمكّن منه، ويؤثر فيه، كما قيل:

أتـاني هواها قبل أن أعرف الهوى   فصـــادف قلـــباً خاليـــاً فتمكـــنا

فيجيء هذا الدواء الشافي إلى القلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجع فيه.

٢- أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب، كما أن الماء مادة النبات، والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً، فكلما أحسّ بنبات الخير من القلب سعى في إفساده وإحراقه، فأمر أن يستعيذ بالله عز وجل منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الذي قبله؛ أن الاستعاذة في الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن، وفي الوجه الثاني لأجل بقائها وحفظها وثباتها.

وكأن من قال: إن الاستعاذة بعد القراءة لاحَظَ هذا المعنى، وهو لعمر الله مَلحَظ جيد، إلا أن السنة وآثار الصحابة إنما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع في القراءة. وهو قول جمهور الأمة من السلف والخلف، وهو محصِّل للأمرين.

٣- أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته، كما في حديث أسيد بن حُضَير لما كان يقرأ ورأى مثل الظُّلَّة فيها مثل المصابيح، فقال ﷺ «تلك الملائكة» والشيطان ضد المَلَك وعدوُّه. فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته، فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

٤- أن الشيطان يُجلب على القارئ بخيله ورَجْله، حتى يشغله عن المقصود بالقرآن. وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه، فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن؛ فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز وجل منه.

٥- أن القارئ يناجي الله تعالى بكلامه، والله تعالى أشد أذناً للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته، والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مفاجأة الله تعالى واستماع الرب قراءته.

٦- أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته. قال الشاعر في عثمان:

تمنى كتاب الله أول ليلِهِ وآخر لاقى حمام المقادر

فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم السلام فكيف بغيرهم؟ ولهذا يغلِّط القارئ تارة ويخلط عليه القراءة، ويشوشها عليه، فيخبط عليه لسانه، أو يشوش عليه ذهنه وقلبه، فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا، أو هذا؛ وربما جمعهما له، فكان من أهم الأمور: الاستعاذة بالله تعالى منه.

٧- أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهمُّ بالخير، أو يدخل فيه. فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه، وفي الصحيح عن النبي ﷺ «إن شيطاناً تفلّت عليَّ البارحة، فأراد أن يقطع عليّ صلاتي - الحديث» وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب إلى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر. وفي مسند الإمام أحمد من حديث سبْرة بن أبي الفاكِهِ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كالفَرَس في الطِّوَل، فعصاه وهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد - وهو جهاد النفس والمال فقال: تقاتل فتُقتل، فتنكح المرأة ويُقسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد» .

فالشيطان بالرصد للإنسان على طريق كل خير.

وقال منصور عن مجاهد رحمه الله «ما من رفقة تخرج إلى مكة إلا جهز معهم إبليس مثل عدّتهم» رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، فهو بالرصد، ولا سيما عند قراءة القرآن، فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق، ويستعيذ بالله تعالى منه أولاً، ثم يأخذ في السير، كما أن المسافر إذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه، ثم اندفع في سيره.

٨- أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتيّ به بعدها القرآن، ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى، ثم شرع ذلك للقارئ، وإن كان وحده، لما ذكرنا من الحِكَم وغيرها» [إغاثة اللهفان: ٢/ ٩٢-٩٤].

صيغة الاستعاذة :

نقل ابن القيم عن ابن المنذر أنه «جاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول قبل القراءة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ، واختار الشافعي وأبو حنيفة والقاضي في الجامع أنه كان يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وهو رواية عن أحمد؛ لظاهر الآية، وحديث ابن المنذر.

وعن أحمد من رواية عبدالله «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» لحديث أبي سعيد، وهو مذهب الحسن وابن سيرين ويدل عليه ما رواه أبو داود في قصة الإفك «أن النبي ﷺ جلس وكشف عن وجهه وقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» .

وعن أحمد رواية أخرى أنه يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم» وبه قال سفيان الثوري ومسلم بن يسار، واختاره القاضي في المجرد وابن عقيل، لأن قوله ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل:٩٨] ظاهره أنه يستعيذ بقوله «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وقوله في الآية الأخرى ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت:٣٦] يقتضي أن يلحق بالاستعاذة وصفه بأنه هو السميع العليم في جملة مستقلة بنفسها مؤكدة بحرف «إن» لأنه سبحانه هكذا ذكر.

وقال إسحاق: الذي أختاره ما ذكر عن النبي ﷺ «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من هَمْزه ونفخه ونفْثِه» .

وقد جاء في الحديث تفسير ذلك، قال: «وهمزه المؤتة، ونفخه: الكِبْر، ونفثه: الشعر» .

وقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۞ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون:٩٧-٩٨] والهمزات: جمع همزة كتمرات وتمرة. وأصل الهمز الدفع، قال أبو عبيد عن الكسائي: همزته، ولمزته، ولهزته، ونهزته - إذا دفعته، والتحقيق: أنه دفع بنخز، وغمز يشبه الطعن، فهو دفع خاص، فهمزات الشياطين: دفعهم الوساوس والإغواء إلى القلب، قال ابن عباس والحسن «همزات الشياطين: نزغاتهم ووساوسهم» وفسرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم، وهذا قول مجاهد، وفسرت بخنقهم وهو الموتة التي تشبه الجنون.

وظاهر الحديث أن الهمز نوع غير النفخ والنفث، وقد يقال - وهو الأظهر - إن همزات الشياطين إذا أفردت دخل فيها جميع إصاباتهم لابن آدم، وإذا قرنت بالنفخ والنفث كان نوعاً خاصاً، كنظائر ذلك.

ثم قال: ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون:٩٨] قال ابن زيد: في أموري، وقال الكلبي: عند تلاوة القرآن، وقال عكرمة: عن النزع والسياق، فأمره أن يستعيذ من نوعي شر إصابتهم بالهمز وقربهم ودنوّهم منه [إغاثة اللهفان: ١/ ٩٥-٩٦].

المبحث العاشر

الحكمة من خلق الشيطان

ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى «أنه - سبحانه - خلق إبليس، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال، والاعتقادات والإرادات. وهو سبب شقاوة العبيد، وعملهم بما يُغضب الرب تبارك وتعالى. وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة. فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالى، مسخوط له. لعنه الله ومقته. وغضب عليه. ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه، وجودُها أحبّ إليه من عدمها، منها:

أن تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات فخلق هذه الذات - التي هي أخبث الذوات وشرها. وهي سبب كل شر - في مقابلة ذات جبريل، التي هي أشرف الذوات، وأطهرها وأزكاها. وهي مادة كل خير، فتبارك الله خالق هذا وهذا، كما ظهرت لهم قدرته التامة في خلق الليل والنهار، والضياء والظلام، والداء والدواء، والحياة والموت، والحر والبرد، والحسن والقبيح، والأرض والسماء، والذكر والأنثى، والماء والنار، والخير والشر.

وذلك من أدلّ الدلائل على كمال قدرته وعزته، وسلطانه وملكه. فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وسلط بعضها على بعض، وجعلها محالّ تصرفه وتدبيره وحكمته، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته.

٢- ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل «القهار، والمنتقم، والعدل، والضار، وشديد العقاب، وسريع الحساب، وذي البطش الشديد، والخافض، والمذل» فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، فلابد من وجود متعلقها، ولو كان الخلق كلهم على طبيعة المَلك: لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

٣- ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه، ومغفرته وستره، وتجاوزه عن حقه، وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكره من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم» .

٤- ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنه سبحانه «الحكيم الخبير» الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله غير منزلته، التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع، ولا الثواب موضع العقاب، ولا العقاب موضع الثواب، ولا الخفض موضع الرفع، ولا الرفع موضع الخفض، ولا العز مكان الذل، ولا الذل مكان العز، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه، ولا ينهى عما ينبغي الأمر به.

فهو أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم بمن يصلح لقبولها، ويشكره على انتهائها إليه ووصولها، وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله. وأحكم من أن يمنعها أهلها، وأن يضعها عند غير أهلها.

فلو قُدِّر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له، لتعطلت هذه الآثار، ولم تظهر لخلقه، ولفاتت الحكم والمصالح المترتبة عليها، وفواتها شر من حصول تلك الأسباب.

فلو عطلت تلك الأسباب - لما فيها من الشر - لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب، وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف ما يحصل بها من الشر والضرر، فلو قدر تعطيلها - لئلا يحصل منها ذلك الشر الجزئي - لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لا نسبة بينه وبينه.

٥- حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، ولكان الحاصل بعضها، لا كلها.

فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها: من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه. وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محابِّ الرب على محابِّ النفس.

٦- ومنها: عبودية التوبة، والرجوع إليه واستغفاره، فإنه سبحانه يحب التوابين. ويحب توبتهم، فلو عطلت الأسباب التي يُتاب منها، لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها.

٧- ومنها: عبودية مخالفة عدوه، مراغمته في الله، وإغاظته فيه. وهي من أحبّ أنواع العبودية إليه. فإنه سبحانه يحب من وَلِيّه أن يغيظ عدوّه ويراغمه ويسوءه. وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس.

٨- ومنها: أن يتعبد له بالاستعاذة من عدوه وسؤاله أن يجيره منه، ويعصمه من كيده وأذاه.

٩- ومنها: أن عبيده يشتد خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حلّ بعدوه بمخالفته، وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المرتبة الشيطانية، فلا يخلدون إلى غرور الأمل بعد ذلك.

١٠- ومنها: أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته، الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة، فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته

١١- ومنها: أن نفس اتخاذه عدواً من أكبر أنواع العبودية وأجلها. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر:٦] فاتخاذه عدواً أنفع شيء للعبد، وهو محبوب للرب.

١٢- ومنها: أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر، والطيب والخبيث، وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد، فخُلق الشيطان مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل. وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل. فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها، ليترتب عليه آثاره، وما في قوى أولئك من الشر، ليترتب عليه آثاره، وتظهر حكمته في الفريقين. وينفذ حكمه فيهما، ويظهر ما كان معلوماً له مطابقاً لعمله السابق.

وهذا هو السؤال الذي سألته ملائكته حين قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا

تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠] فظنت الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أولى من وجود من يعصيه ويخالفه، فأجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه الملائكة.

١٣- أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه: حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة الظالمة، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار على إبراهيم برداً وسلاماً، والآيات التي أجراها الله تعالى على يد موسى، وغير ذلك من آياته التي يقول سبحانه عقيب ذكر كل آية منها في سورة الشعراء: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء:١٩٠-١٩١] فلولا كفر الكافرين، وعناد الجاحدين، لما ظهرت هذه الآيات الباهرة، التي يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل إلى الأبد.

١٤- أن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضاً، ويكسر بعضها بعضاً: هو من شأن كمال الربوبية، والقدرة النافذة، والحكمة التامة، والملك الكامل - وإن كان شأن الربوبية كاملاً في نفسه، ولو لم تخلق هذه الأسباب - لكن خلقها من لوازم كماله وملكه، وقدرته وحكمته. فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة: تحقيق لذلك الكمال، وموجب من موجباته، فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته [مدارج السالكين: ٢/ ٢٢٠-٢٢٣].

وتعرض ابن القيم رحمه الله تعالى - لهذا الموضوع، وهو الحكمة من وراء خلق إبليس بشيء من التفصيل والتوسع فقال: «قولهم: أيّ حكمة في خلق إبليس وجنوده؟ ففي ذلك من الحكم ما لا يحيط بتفصيله إلا الله، فمنها:

١- أن يكمل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية، بمجاهدة عدو الله وحزبه، ومخالفته ومراغمته في الله، وإغاظته وإغاظة أوليائه والاستعاذة به منه، واللجوء إليه أن يعيذهم من شرّه وكيده، فيترتب لهم على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه، وقد قدمنا أن الموقوف على الشيء لا يحصل بدونه.

٢- أن خوف الملائكة والمؤمنين من ربهم، بعد أن شاهدوا من حال إبليس ما شاهدوه، وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المنزلة الإبليسية، يكون أقوى وأتم، ولا ريب أن الملائكة لما شاهدوا ذلك حصلت لهم عبودية أخرى للرب تعالى، وخضوع آخر وخوف آخر، كما هو المشاهد من حال عبيد الملك، إذا رأوه قد أهان أحدهم الإهانة التي بلغت منه كل مبلغ، وهم يشاهدونه، فلا ريب أن خوفهم وحذرهم يكون أشد.

٣- أنه سبحانه جعله عبرة لمن خالف أمره وتكبر عن طاعته، وأصر على ذلك، كما جعل ذنب أبي البشر عبرة لمن ارتكب نهيه أو عصى أمره، ثم تاب وندم ورجع إلى ربه، فابتلى أبوي الجن والإنس بالذنب، وجعل هذا الأب عبرة لمن أصر وأقام على ذنبه، وهذا الأب عبرة لمن تاب ورجع إلى ربه، فلله كم في ضمن ذلك من الحكم الباهرة، والآيات الظاهرة.

٤- أنه محك امتحن الله به خلقه ليتميز به خبيثهم من طيبهم، فإنه سبحانه خلق النوع الإنساني من الأرض، وفيها السهل والحزن والطيب والخبيث، فلابد أن يظهر فيهم ما كان في مادتهم الأصلية، كما في الحديث الذي رواه الترمذي مرفوعاً: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على مثل ذلك، منهم الطيب والخبيث، والسهل والحزن وغير ذلك» [عزاه محقق الكتاب إلى أحمد والترمذي وأبي داود وغيره بإسناد صحيح] .

فما كان في المادة الأصلية فهو كائن في المخلوق منها، فاقتضت الحكمة الإلهية إخراجه وظهوره، فلابد إذاً من سبب يظهر ذلك، فكان إبليس محكاً يتميز به الطيب من الخبيث، كما أنه جعل أنبياءه ورسله محكاً لذلك التمييز، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران:١٧٩] فأرسل رسله إلى المكلفين، وفيهم الطيب والخبيث، فانضاف الطيب إلى الطيب، والخبيث إلى الخبيث، فاقتضت حكمته البالغة أن خلطهم في دار الامتحان، فإذ صاروا إلى دار القرار يميز بينهم، وجعل لهؤلاء داراً على حدة، ولهؤلاء داراً على حدة، حكمة بالغة وقدرة قاهرة.

٥- أن يظهر كمال قدرته في مثل خلق جبريل والملائكة وإبليس والشياطين، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه، فإنه خالق الأضداد كالسماء والأرض، والضياء والظلام، والجنة والنار، والماء والنار، والحديد والهواء، والخير والشر، والطيب والخبيث.

٦- أن خلق أحد الضدين من كمال إظهار حسن ضده، فإن الضد إنما يظهر حسنه بضده، فلولا القبيح لم تظهر فضيلة الجميل، ولولا الفقر لم يُعرف قدر الغنى، كما تقدم بيانه قريباً.

٧- أنه سبحانه يحب أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه، ولا ريب أن أولياءه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده وامتحانهم به من أنواع شكره ما لم يكن ليحصل لهم بدونه، فكم بين شكر آدم عليه السلام وهو في الجنة قبل أن يخرج منها وبين شكره بعد أن ابتلي بعدوه، ثم اجتباه ربّه فتاب عليه وقبله.

٨- أن المحبة والإنابة والتوكل والصبر والرضا ونحوها أحب العبودية إلى الله سبحانه، وهذه العبودية إنما تتحقق بالجهاد وبذل النفس لله، وتقديم محبته على كل ما سواه، فالجهاد ذروة سنام العبودية وأحبها إلى الربّ سبحانه، وكان في خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التي لا يحصي حكمها وفوائدها وما فيه من المصالح إلا الله.

٩- أن في خلق من يضاد رسله ويكذبهم ويعاديهم، من تمام ظهور آياته وعجائب قدرته ولطائف صنعه، ما وجوده أحب إليه وأنفع لأوليائه من عدمه، كما تقدم من ظهور آية الطوفان والعصا واليد وفلق البحر وإلقاء الخليل في النار، وأضعاف أضعاف ذلك من آياته وبراهين قدرته وعلمه وحكمته، فلم يكن بدّ من وجود الأسباب التي يترتب عليها ذلك كما تقدم.

ومنها: أن المادة النارية فيها الإحراق والعلو والفساد، وفيها الإشراق والإضاءة والنور، فأخرج منها سبحانه هذا وهذا، كما أن المادة الترابية الأرضية فيها الطيب والخبيث، والسهل والحزن، والأحمر والأسود والأبيض، فأخرج منها ذلك كله حكمة باهرة، وقدرة قاهرة، وآية دالة على أنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١].

١٠- أن من أسمائه: الخافض، الرافع، المعزّ، المذلّ، الحكم، العدل، المنتقم، وهذه الأسماء تستدعي متعلقات يظهر فيها أحكامها كأسماء الإحسان والرزق والرحمة ونحوها، ولابد من ظهور متعلقات هذه وهذه.

١١- أنه سبحانه الملك التام الملك، ومن تمام ملكه عموم تصرفه وتنوعه بالثواب والعقاب، والإكرام والإهانة، والعدل والفضل، والإعزاز

والإذلال، فلابد من وجود من يتعلق به أحد النوعين، كما أوجد من يتعلق به النوع الآخر.

١٢- أن من أسمائه الحكيم، والحكمة من صفاته سبحانه، وحكمته تستلزم وضع كل شيء موضعه الذي لا يليق به سواه، فاقتضت خلق المتضادات وتخصيص كل واحد منها [بما] لا يليق به غيره من الأحكام والصفات والخصائص، وهل تتم الحكمة إلا بذلك؟ فوجود هذا النوع من تمام الحكمة كما أنه من كمال القدرة.

١٣- أن حمده سبحانه تام كامل من جميع الوجود، فهو محمود على عدله ومنعه، وخفضه، وانتقامه، وإهانته، كما هو محمود على فضله وعطائه ورفعه وإكرامه، فله الحمد التام الكامل على هذا وهذا، وهو يحمد نفسه على ذلك كله، ويحمده عليه ملائكته ورسله وأولياؤه، ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم، وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه، فله في خلقه وإيجاده الحكمة التامة، كما له عليه الحمد التام، فلا يجوز تعطيل حمده كما لا يجوز تعطيل حكمته.

١٤- أنه سبحانه يحب أن يظهر لعباده حلمه وصبره وأناته، وسعة رحمته وجوده، فاقتضى ذلك خلق من يشرك به ويضاده في حكمته، ويجتهد في مخالفته ويسعى في مساخطه، بل يشتمه سبحانه، وهو مع ذلك يسوق إليه أنواع الطيبات، ويرزقه ويعافيه، ويمكّن له من أسباب ما يلتذ به من أصناف النعم، ويجيب دعاءه، ويكشف عنه السوء، ويعامله من برّه وإحسانه بضد ما يعامله هو به من كفره وشركه وإساءته، فلله كم في ذلك من حكمة وحمد، وتحبب إلى أوليائه وتعرف إليهم بأنواع كمالاته [شفاء العليل: ٦٥٠-٦٥٣].

المبحث الحادي عشر

باب جامع

المطلب الأول

التسمي بأسماء الشياطين

ذكر ابن القيم من أسماء الشياطين: «خنزب، والولهان، والأعور، والأجدع» . وأورد حديث الشعبي عن مسروق قال: لقيت عمر بن الخطاب، فقال: «من أنت؟ قلت: مسروق بن الأجدع، فقال عمر ﷺ : سمعت رسول الله ﷺ يقول: الأجدع شيطان» [عزاه محقق تحفة المودود إلى أبي داود وابن ماجه والحاكم. وفي إسناده مجالد بن سعيد، وهو ضعيف] [تحفة المودود: ١١١].

وأورد ابن القيم حديث ابن ماجه وزيادات عبدالله في مسند أبيه من حديث أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ قال: «إن للوضوء شيطاناً، يقال له: الولهان، فاتقوا وسواس الماء» [الترمذي: ٥٧. وقال: حديث غريب، وليس إسناده بالقوي] [تحفة المودود: ١١١].

وأورد ابن القيم أن عثمان بن أبي العاص شكى إلى الرسول ﷺ من وسواسه في الصلاة، فقال الرسول ﷺ : «ذلك شيطان يقال له خِنْزَب» [مسلم: ٢٢٠٣]، وتمام الحديث: (فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل عن يسارك ثلاثاً). قال: ففعلت ذلك، فأذهبه الله عني [تحفة المودود: ١١].

وأورد ابن القيم ما «ذكره ابن أبي شيبة، حدثنا حميد بن عبدالرحمن عن هشام، عن أبيه: «أن رجلاً كان اسمه الحباب، فسماه رسول الله ﷺ

عبدالله، وقال: (الحُباب شيطان) [تحفة المودود: ص١١٢] [عزاه محقق التحفة إلى ابن أبي شيبة، وعبدالرزق، وقال المحقق، هو مرسل].

المطلب الثاني
حكم مشاركة الجن الإنس الصبر

تساءل ابن القيم قائلاً: «هل يشارك الجن الإنس في هذا الصبر؟» وأجاب قائلاً: نعم، هذا من لوازم التكليف، وهو مظنة الأمر والنهي، والجن مكلفون بالصبر على الأوامر والصبر عن الناهي، كما كُلفنا نحن بذلك، فإن قيل، فهل هم مكلفون على الوجه الذي كُلِّفنا نحن به أم على وجه آخر؟ قيل: ما كان من لوازم النفوس كالحب والبغض والإيمان والتصديق والموالاة والمعاداة، فنحن وهم مستوون فيه، وما كان من لوازم الأبدان كغُسل الجنابة وغسل الأعضاء في الوضوء فمختلفون» [عدة الصابرين: ٣٠].

وأورد ابن القيم مجموعة من القصص تدل على معاناة الشيطان من مصارعة جند الرحمن له، فقال: «قال عبدالله بن مسعود ﷺ : لقي رجل من الإنس رجلاً من الجن فصارعه فصرعه الإنسي، فقال: ما لي أراك ضئيلاً؟ فقال: إني من بينهم لضليع، فقالوا: أهو عمر بن الخطاب؟ فقال: من ترونه غير عمر» [عزاه محقق الكتاب إلى مجمع الزوائد: ٩/ ٧٤].

وقال بعض الصحابة: «إن المؤمن يُنضي شيطانه كما يُنضي أحدكم بعيره في السفر» [رواه أحمد في مسنده، عن أبي هريرة، وهو ضعيف، انظر ضعيف الجامع الصغير: ١٧٧٢].

وذكر ابن أبي الدنيا عن بعض السلف: إن شيطاناً لقي شيطاناً فقال: ما لي أراك شحيباً؟ فقال: إني مع رجل إن أكل ذكر اسم الله فلا آكل معه،

وإن شرب ذكر اسم الله فلا أشرب معه، وإن دخل بيته ذكر اسم الله فأبيت خارج الدار، فقال الآخر: لكنني مع رجل إن أكل لم يسمِّ الله فآكل أنا وهو جميعاً، وإن شرب لم يسم الله فأشرب معه، وإن دخل داره لم يسمِّ الله فأدخل معه، وإن جامع امرأته لم يسمِّ الله فأجامعها معه. فمن اعتاد الصبر هابه عدوه، ومن عزّ عليه الصبر طمع فيه عدوّه وأوشك أن ينال منه غرضه.

المطلب الثالث

السر في تقديم الجن على الإنس في اللفظ في القرآن

بيّن ابن القيم «أن الله قدّم الجن على الإنس في أكثر المواضع، لأن الجن تشتمل على الملائكة وغيرهم مما اجتن عن الأبصار، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ [الصافات:١٥٨] وقال الأعشى:

وسخر من جن الملائكة شيعة   قياماً لديه يعملون بلا أجر»
[بدائع الفوائد: ٦٣]

ثم بيّن أنه قدم الإنس في قوله: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن:٧٤] وقوله: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الجن:٥] فإن لفظ الجن ههنا لا يتناول الملائكة بحال، لنزاهتهم عن العيوب، وأنهم لا يتوهم عليهم الكذب، ولا سائر الذنوب، فلما لم يتناولهم عموم لفظ هذه القرينة بدأ بلفظ الإنس لفضلهم وكمالهم» [بدائع الفوائد: ٦٣].

المطلب الرابع

العالم أشد على الشيطان من ألف عابد

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذا الموضوع: «قال المزني: روي عن ابن عباس أنه قال: إن الشياطين قالوا لإبليس: يا سيدنا ما لنا نراك تفرح

بموت العالِم ما لا تفرح بموت العابد، والعالِم لا نصيب منه والعابد نصيب منه، قال: انطلقوا، فانطلقوا إلى عابد فأتوْه في عبادته فقالوا: إنا نريد أن نسألك! فانصرف، فقال إبليس: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة؟ فقال: لا أدري، فقال: أترونه كفر في ساعة؟! ثم جاؤوا إلى عالِم في حلقته يُضاحك أصحابه ويُحدِّثهم، فقالوا: إنا نريد أن نسألك! فقال: سل، فقال: هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة؟ قال: نعم، قالوا: كيف؟ قال: يقول: كن فيكون؟ فقال: أترون ذلك يعدو نفسه، وهذا يُفسد عليّ عالَماً كثيراً.

وقد رُويت هذه الحكاية على وجه آخر، وأنهم سألوا العابد فقالوا: هل يقدر ربك أن يخلق مثل نفسه؟ فقال: لا أدري، فقال: أترونه لم تنفعه عبادته مع جهله! وسألوا العالِم عن ذلك؟ فقال: هذه المسألة محال؛ لأنه لو كان مثله مخلوقاً، فكونه مخلوقاً وهو مثل نفسه مستحيل، فإذا كان مخلوقاً لم يكن مثله، بل كان عبداً من عبيده، وخلقاً من خلقه، فقال: أترون هذا يهدم في ساعة ما أبنيه في سنين! أو كما قال.

وروي عن عبدالله بن عمر: «فضل العالم على العابد سبعين درجة بين كل درجتين حُضر الفرس سبعين عاماً» ، وذلك أن الشيطان يضع البدعة فيبصرها العالم فينهى عنها، والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها! .

وهذا معناه صحيح؛ فإن العالم يفسد على الشيطان ما يسعى فيه ويهدم ما يبنيه، فكلما أراد إحياء بدعة وإماتة سنّة حال العالِم بينه وبين ذلك، فلا شيء أشدّ عليه من بقاء العالم بين ظهراني الأمة، ولا شيء أحب

إليه من زواله من بين أظهرهم، ليتمكن من إفساد الدين وإغواء الأمة، وأما العابد فغايته أن يجاهد ليسلم منه في خاصة نفسه، وهيهات له ذلك! .

المطلب الخامس

يا عزى كفرانك

العزى إحدى الآلهة التي كانت تعبدها العرب في الجاهلية، قال ابن القيم: «كانت بواد من نخلة، فوق ذات عرق، وبنوا عليها بيتاً، وكانوا يسمعون منه الصوت» .

قال هشام: وحدثني أبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «كانت العُزّى شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد، فقال: ائت بطن نخلة، فإنك ستجد ثلاث سَمُرات، فاعضِدِ الأولى، فأتاها فعَضَدها، فلما جاء إليه قال: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا، قال فاعضد الثانية، فأتاها فعضدها، ثم أتى النبي ﷺ ، فقال: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا، قال: فاعضد الثالثة، فأتاها، فإذا هو بحبشية نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها، تصرف بأنيابها، وخلفها دُبَيّة بن حَرَمي الشيباني ثم السلمى، وكان سادنها فلما نظر إلى خالد قال:

أعُــزّاء شــدّي شَــدّةً لا تُكَذّبـي ... على خالد، ألقي الخمارَ وشمّري

فــإنك إلاَّ تقتــلي اليــوم خــالداً ... تــبوئي بــذلٍّ عــاجلاً وتَنَصّــري

فقال خالد:

يـا عُزّى كُفْرانك، لا سبحانك ... إنــي رأيــتُ الله قــد أهــانك

ثم ضربها، ففلق رأسها، فإذا هي حُمَمَة، ثم عضد الشجرة، وقتل دُبَيَّة السادن، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: تلك العُزَّى، ولا عُزَّى بَعْدَها للعرب» [إغاثة اللهفان: ٢/ ٢١٣-٢١٤].

المحتويات

فاتحة الكتاب ٥

الفصل الثاني: الإيمان بالملائكة ١١
المبحث الأول: التعريف بالملائكة ١٣
المطلب الأول: لفظ الملاك يشعر بأنه رسول منفذ للأمر ١٣
المطلب الثاني: المادة التي خُلق الملائكة منها ١٣
المطلب الثالث: الملائكة خير صافٍ وعقول بلا شهوات ١٤
المبحث الثاني: صفات الملائكة ١٦
المطلب الأول: قدرتهم على اختراق الحواجز والحجب ١٦
المطلب الثاني: عدم قدرة البشر على مشاهدتهم ١٦
المطلب الثالث: لا يعلمون إلا ما أعلمهم الله به ٢٠
المبحث الثالث: الإيمان بالملائكة أحد أصول الإيمان ٢١
المبحث الرابع: الأدلة الدالة على وجود الملائكة ٢٢
المبحث الخامس: مسكن الملائكة ومجالسهم ٢٣
المبحث السادس: أفضل الملائكة ورؤساؤهم ٢٥
المبحث السابع: جبريل فضله ومكانته ٢٧
المطلب الأول: فضل جبريل عليه السلام ٢٧
المطلب الثاني: صفات جبريل عليه السلام ٢٨
المطلب الثالث: رؤية رسولنا ﷺ جبريل عليه السلام ٣٢
الغصن الأول: رؤية رسولنا جبريل عليهما السلام ٣٢

الغصن الثاني: أهمية رؤية رسولنا جبريل عليه السلام ٣٤
المطلب الرابع: المهمات التي كلّف الله بها جبريل عليه السلام ٣٥
المطلب الخامس: تسليم جبريل على بعض أزواج النبي ﷺ ٣٦
المبحث الثامن: أعمال الملائكة وأصنافهم ٣٧
المطلب الأول: التعريف بالمقسمات أمراً ٣٨
المطلب الثاني: النازعات غرقاً ٣٩
المطلب الثالث: السابحات سبحاً ٤١
المطلب الرابع: المدبرات أمراً ٤١
المطلب الخامس: النشرات نشراً ٤٢
المطلب السادس: السابقات سبقاً ٤٢
المطلب السابع: مجيء الملائكة الرسول ﷺ في منامه ٤٤
المطلب الثامن: تبشير الملك الرسول ﷺ بأجر من صلى عليه ٤٥
المطلب التاسع: ضيف نبي الله إبراهيم من الملائكة ٤٧
المطلب العاشر: الحركة في السماوات والأرض ناشئة من الملائكة ٤٧
المبحث التاسع: الملائكة وآدم عليهم السلام ٤٩
المطلب الأول: إعلام الله ملائكته بجعله آدم وذريته خلفاء الأرض ... ٤٩
المطلب الثاني: تسليم آدم على الملائكة ٥٠
المبحث العاشر: الملائكة وبنو آدم ٥٢
المطلب الأول: الملائكة موكلون بالإنسان منذ أن يكون نطفة ٥٢
المطلب الثاني: قرين الإنسان من الملائكة ٥٣
المطلب الثالث: نصح الملائكة لبني آدم ٥٤
المطلب الرابع: صحبة العبد للملك أنفع شيء له ٥٦
المطلب الخامس: قلب الإنسان بين لمة الملك ولمة الشيطان ٥٩
المطلب السادس: لو تكونون على التي أنتم عليه عندي
لصافحتكم الملائكة ٦١

المطلب السابع: استغفار الملائكة للذاكر وللتائب من بني آدم ٦٢
المطلب الثامن: الملائكة والعلماء وطلبة العلم ٦٢
الغصن الأول: وضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم ٦٣
الغصن الثاني: مباهاة الله ملائكته بطالبي العلم ٦٥
المطلب التاسع: بناء الملائكة لبني آدم قصوراً في الجنة ٦٦
المطلب العاشر: لعن الملائكة مرتكبي الكبائر ٦٧
المطلب الحادي عشر: أسماء الملائكة وحكم التسمّي بها ٦٧
المطلب الثاني عشر: البيت المعمور كعبة أهل السماء ٦٨
المطلب الثالث عشر: معنى صلاة الملائكة على الرسول ﷺ
وتبليغهم له عن أمته السلام ٦٩
الغصن الأول: معنى صلاة الملائكة على رسولنا ٦٩
الغصن الثاني: الملك الذي أعطاه الله سمع الخلائق ليبلغ
الرسول ﷺ عن أمته السلام ٧٠
المبحث الحادي عشر: المفاضلة بين الملائكة وآدم وبنيه ٧٢
المطلب الأول: فضل آدم ومكانته ٧٢
المطلب الثاني: المفاضلة بين الملائكة وصالحي بني آدم ٧٤
المبحث الثاني عشر: ضلال طوائف من بني آدم تجاه الملائكة ٧٧
المطلب الأول: موقف الفلاسفة من الملائكة ٧٧
المطلب الثاني: عبادة المشركين الملائكة ٧٧
المطلب الثالث: زعم المشركين أن الملائكة بنات الله ٧٩
المطلب الرابع: المستهزئون بالملائكة ٨٠
المطلب الخامس: عداوة اليهود لبعض الملائكة ٨١

الفصل الثالث: الجن والشياطين ٨٣
المبحث الأول: التعريف بالجن ٨٥
المطلب الأول: الجن كانوا ولا يزالون طرائق قدداً ٨٥

المطلب الثاني: عمل الشيطان وقرآنه وكتابه وطعامه ٨٦
السحر عمل الشيطان ٨٧
الشعر قرآنه ٨٧
كون الوشم كتاب الشيطان ٨٧
طعام الشيطان ٨٨
المسكر شرابه ٨٨
الأسواق مجلسه ٨٨
بيت الشيطان ٨٨
المزمار مؤذنه ٨٩
الكذب حديث الشيطان ٨٩
الكهنة رسل الشيطان ٨٩
الغناء قرآن الشيطان ٩٠
صوت الشيطان ٩١
مزمور الشيطان ٩٢
تحريم الموسيقا وآلات اللهو ٩٣
المبحث الثاني: الجن والشياطين مكلّفون ٩٨
المبحث الثالث: رسل الإنس هم رسل الجن ١٠٧
المبحث الرابع: الجن محاسبون مجزيون في الآخرة ١٠٩
المطلب الأول: كفرة الجن في النار ١٠٩
المطلب الثاني: الحق أن مؤمني الجن يدخلون الجنة ١١٠
المبحث الخامس: السقوط الكبير لإبليس ١١٧
المطلب الأول: كيد الشيطان لنفسه قبل كيده لغيره ١١٧
المطلب الثاني: اختيار إبليس الكفر عمداً على علم ١٢٠
المطلب الثالث: إبطال دعوى إبليس أنه خير من آدم ١٢٠
المبحث السادس: المعركة بين إبليس وبين آدم وذريته ١٢٦

المطلب الأول: كيده للأبوين ١٢٧
المطلب الثاني: وضع العداوة بين إبليس وذريته وآدم وذريته ١٢٩
المطلب الثالث: هجوم الشيطان على الإنسان في إغوائه له ١٣٠
المطلب الرابع: محاولة الشيطان الهيمنة على قلب الإنسان ١٣٨
المطلب الخامس: دلالة الشيطان جنده على طريقة إضلال الإنسان . ١٤١
المطلب السادس: طرائق الشيطان في صيده الإنسان ١٤٨
المطلب السابع: وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن . ١٥٣
المطلب الثامن: ذم الرحمن من اتبع هدى الشيطان من بني آدم ١٥٤
المبحث السابع: تلاعب الشيطان ببني آدم ١٥٦
المطلب الأول: الشيطان القرين للإنسان ١٥٦
المطلب الثاني: تعبيد الشيطان بني آدم للمخلوقات ١٥٧
المطلب الثالث: تعبيد الشيطان الإنسان لنفسه ١٥٨
المطلب الرابع: بالمعاصي يأسر الشيطان الإنسان ويتجرأ عليه ١٦٠
المطلب الخامس: الضلال الذي يريده الشيطان من الإنسان ١٦١
الغصن الأول: إشغال الشيطان المصلي في صلاته ١٦١
الغصن الثاني: أمر الشيطان العباد بتبتيك آذان الأنعام ١٦٣
المبحث الثامن: أولياء الشيطان ١٦٥
المطلب الأول: ولاية الشيطان لأهل الشرك والذنوب والمعاصي . ١٦٥
المطلب الثاني: تولي أصحاب الكشوف الشيطانية للشيطان ١٦٦
المطلب الثالث: تخويف الشيطان المؤمنين أولياءه ١٦٨
المطلب الرابع: خذلان الشيطان أولياءه ١٧٠
المطلب الخامس: تزيينه الباطل بالأيمان الكاذبة ١٧١
المطلب السادس: تزيينه الكلام الباطل والآراء المتهافتة ١٧٤
المبحث التاسع: إحراز الإنسان نفسه من الشيطان ١٨٢
المطلب الأول: إعانة الرحمن الإنسان في حربه مع الشيطان ١٨٢

المطلب الثاني: الإنسان بين الملك والشيطان وبين العقل والهوى . ١٨٤
المطلب الثالث: عباد الله الذين لا سلطان للشيطان عليهم ١٨٥
المطلب الرابع: عشرة طرق تقي الإنسان من الشيطان ١٨٧
المطلب الخامس: ذكر الله وقاية من الشيطان ١٩٢
المبطلب السادس: الاستعاذة من الشيطان ١٩٨
المبحث العاشر: الحكمة من خلق الشيطان ٢٠٤
المبحث الحادي عشر: باب جامع ٢١٣
المطلب الأول: التسمّي بأسماء الشياطين ٢١٣
المطلب الثاني: حكم مشاركة الجن الإنس الصبر ٢١٤
المطلب الثالث: السر في تقديم الجن على الإنس في اللفظ في القرآن ٢١٥
المطلب الرابع: العالِم أشد على الشيطان من ألف عابد ٢١٥
المطلب الخامس: يا عزى كفرانك ٢١٧